المبحث الثالث

البناء العلمى والفكرى للطفل

«مُروا أولادكم بطلب العلم»[1].على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه .

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل] .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

«علموا؛ ويسّروا ولا تعسروا؛ وبشروا ولا تنفروا؛ وإذا غضب أحدكم فليسكت»[2].

(١) كنز العمال (٥٨٤/ ١٦) .

(٢) رواه البخارى فى الأدب، وأحمد، وابن عدي، والقضاعى، وابن شاهين، والحديث صحيح بشواهده. انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٣٧٥) .

البناء العلمى والفكرى للطفل

تمهيد :

لا يوجد فى التاريخ دين مثل دين الإسلام، حرص على تعليم أبنائه، ولا توجد فكرة فى العالم تحرص على تعليم تلامذتها مثل فكرة الإسلام، وهذا معترفٌ بـه مـن قبل أعداء الإسلام قبل غيرهم، فهـذا الـدكتور «أرثـر آربـرى» أسـتاذ الدراسـات الإسلامية بجامعة كمبردج يقول[1] :

للإسلام على الجنس البشرى مآثر تدعو إلى الإعجـاب، وتـستدعى الـشكران، ولدينا مؤلفات عـدة تـصف مـا أسـهم بـه المـسلمون فى ترقيـة الفنـون، والآداب، والعلوم، والسياسة، ومن الواضح أن المسلمين مـا كـانوا يـصلون إلى تحقيـق هـذه الأهداف العلمية الرفيعة، لولا حرصهم البالغ على التعلم والتعليم، ذلك الحـرص الذى تميزت به الشعوب الإسلامية خلال تاريخها الطويـل، فهـب رجالـه ونـساؤه مستجيبين لدعوة الرسول ﷺ : «اطلبوا العلم ولو فى الصين»[2] .

قال الإمام ابن الجوزى فى كتابه:«الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» : «ومتى اعتدل المزاج، وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبى من حال صغره، فتراه يطلب معالى الأمور، فإن طلب رفعة الدنيا دلَّ على قصور فهمه؛ لأن من استحضر عقله دله على خالقٍ وجب عليه طاعته، وامتثال أوامره، فطلب التقرب إليه، وعلم أنه لا يقرب إلا بالعلم والعمل، فجدَّ فى تحصيل ذلك من غير آمر، ولا مُحرِّضٍ، فتراه يطلب الغاية فى العلم، ثم يخرج به الأمر إلى الزهد فى الفانى، وتحصيل ما يمكن من الفضائل، ثم يترقّى إلى محبة الحق سبحانه، ومن كَمُل وفَّقَ، وقال الله

(١) عن مقدمة كتاب : تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبى .

(٢) قال السخاوى فى المقاصد الحسنة : رواه البيهقى فى الشعب، والخطيب فى الرحلة وغيرها، وابن عبد البر فى جامع العلم، والديلمى . ثم قال : قال ابن حبان : إنه باطل لا أصل له، وذكره ابـن الجـوزى فى الموضوعات . والله أعلم .

تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝﴾ [الأنبياء]. فهذه صفة الغاية، وذلك لا يحتاج إلى مُحَرِّضٍ؛ لأن همته تمشى به، وهو قاعد، ثم يتفاوت الصبيان بعد ذلك: فمنهم من يحتاج إلى محرضٍ وهم الأكثر، ومنهم من تنبهه بأيسر تنبيه، ومنه من يتعب معه الرائض، وجِبِلَّته لا تقبل الرياضة.

فمن رزق ولداً فليجتهد معه، والتوفيق من وراء ذلك، فينبغى له أن يُعوِّده النظافة والطهارة من الصغر، ويثقفه بالآداب، فإذا بلغ خمس سنين أخذه بحفظ العلم؛ فإن الحفظ فى الصغر نقش فى حَجَر، ومتى بلغ الصبى ولم يكن له همَّةٌ تحُثُّه على اكتساب العلم بعدُ؛ فلا فلاح له»[1].

وفى عملية البناء العلمى والفكرى لابد من وضوح الأركان، والأسس التى يسير عليها الوالدان، لكى يَضْمنا لطفلهما البناء السليم،والعلم الغزير، والأفكار الصحيحة؛لأن هذا البناء يُعدُّ من أهم ما يُكوِّن الطفل؛ لأنه بناء العقل، فإذا كان سليماً كان الخير والبِشر للوالدين، وإذا كان غير ذلك فقد أنجبا عدواً لهما يحاربهما من داخلهما، ويؤدى بهما إلى هاوية جهنم، والعياذ بالله تعالى.

ونلاحظ من هذه الأسس فى البناء العلمى التى سنأتى على ذكرها بعون الله تعالى، أنها تعالج الطفل من داخله ليتجه نحو العلم، والتعلم، وحب العلماء، كما تبين أهمية دور الوالدين فى اختيار الأستاذ الناجح الصالح؛ الذى هو مرآة لقلب وعقل الطفل، فما يستحسنه الأستاذ يستحسنه الطفل؛ لذلك لابد من معرفة هذه الأسس التى يحتاج إليها الوالدان، فما هى ؟

---

(١) انظر: الجامع فى الحث على حفظ العلم (ص ٢٤٨). وقد جمع محققه عبد الله الحداد أربع رسائل، الأولى: (الحث على طلب العلم والاجتهاد فى جمعه) لأبى هلال العسكرى ت ٤٠٠ هـ، والثانية: (الحث على حفظ الحديث) للخطيب البغدادى ت ٤٦٣ هـ، والثالثة: (جُزءٌ فيه أخبار لحفظ القرآن) لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، والرابعة: (الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ) لابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ)، وسننقل مقتطفات منها فى هذا الباب.

الأساس العلمى الأول : حق الطفل فى التعلم، وغرس حب العلم وآدابه فى الطفل :

أوجب النبى ﷺ على الآباء تعليم الأبناء، ذلك لأن الإسلام دين (اقرأ) وليس دين (اجهل)، فقد عدد الرسول ﷺ الحقوق على الإنسان، ومنها حق الولد .

روى الإمام مسلم فى صحيحه : أن النبى ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، وإن لولدك عليك حقاً» قال النووى ـ رحمه الله ـ فى شرحه لصحيح مسلم (٨/ ٤٣) :

«وإن لولدك عليك حقاً» فيه : أن على الأب تأديب ولده وتعليمه، وما يحتاج إليه من وظائف الدين، وهذا التعليم واجب على الأب،وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبى والصبية، نص عليه الشافعى وأصحابه : وعلى الأمهات أيضاً هذا التعليم، إذا لم يكن أب؛ لأنه من باب التربية، ولهن مدخل فى ذلك، وأجرة هذا التعليم فى مال الصبي، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته؛ لأنه مما يحتاج إليه، والله أعلم».

وقد تقدم معنا فى الفصل الأول (من **القسم الأول**) : مسؤولية التربية، نقولات كثيرة، فارجع إليها، ولا حاجة لتكرارها هنا .

ووضع النبى ﷺ قاعدة أصيلة بكسب مرحلة الطفولة فى التعلم، وطلب العلم، تناقلتها الأجيال كلها جيلاً بعد جيل، فغدت تستنهضُ همم الآباء لحث أبنائهم على طلب العلم وحبه؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم[1]، سواء كان صغيراً أم كبيراً، رجلاً أو امرأة، صبياً أم بنتاً، وهو أفضل العبادات التى يتقرب فيها العبد من ربه؛ لهذا كانت فترة الطفولة أخصب فترة فى البناء العلمي والفكرى للطفل .

فقد روى الطبرانى[2] عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذى

(١) رواه ابن ماجه عن أنس ﷺ مرفوعاً . انظر : المقاصد الحسنة برقم (٦٦٠)، حيث قال العراقى : صحح بعض الأئمة طرقه، وقال المزى : إن طرقه تبلغ به رتبة الحسن .

(٢) بسند ضعيف، قاله السخاوى فى «المقاصد الحسنة» . وانظر : ضعيف الجامع بلفظ : «حفظ الغلام الصغير كالنقش فى الحجر» برقم (٢٧٢٦) وأشار إلى ضعفه .

يتعلم العلم فى صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذى يتعلم العلم فى كبره كالذى يكتب على الماء».

ذكره ابنُ عابدين فى حاشيته، ثم قال : ومما أنشد نِفْطَوَيْه لنفسه[1] :

أرانى نسيت ما تعلمت فى الكبر ... ولست بناس ما تعلمت فى الصغر
وما العلم إلا بالتعلم فى الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلم فى الكبر
وما العلم بعد الشيب إلا تعسف ... إذا كل قلب المرء والسمع والبصر
ولو فلق القلبَ المعلمُ فى الصبا ... لأَبصَرَ فيه العلم كالنقش فى الحجر

روى الإمام؟ بسند حسن عن زِرّ بن حُبَيشٍ قال: أتيتُ صفوان بن عسالٍ المُرادىَّ فقال : ما جاء بك ؟ قال : فقلت : جئتُ أطلُبُ العِلمَ، قال: فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «ما من خارج يَخرُجُ من بيتٍ فى طلب العلمِ إلا وضعت له الملائكةُ أجنِحَتَهَا؛ رِضاً بما يَصْنَعُ» . ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى.

فإذا وعى الطفل عندما يذهب إلى المدرسة هذا الحديث النبوى، وذكره والده به، فإنه سيزيد من شغفه وحبه لطلب العلم، مما له كبير الأثر فى الاستزادة منه، وتغلبه على حب الطفل للهو .

وقد أورد السخاوى فى «المقاصد الحسنة»[2] عدداً من الأحاديث التى تؤيد هذا المعنى، منها :

ما رواه أبو هريرة ﷺ مرفوعاً : «من تعلم القرآن فى شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه فى كبره فهو يتفلت منه ولا يتركه، فله أجره مرتين» . رواه البيهقى، والديلمى، والحاكم .

وقال ابن عباس : «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهم ممن أوتى الحكم صبياً» .

ولقد وعى الصحابة، والتابعون، وأصحاب الحديث أن تعلم الصغار له كبير

(١) حاشية ابن عابدين (ط ٢ ـ ١/ ١٥٧) وانظر : المقاصد الحسنة (ص ٤٦١) .
(٢) رواه ابن ماجه عن أنس ﷺ مرفوعاً . انظر : المقاصد الحسنة برقم (٦٦٠) .

الأثر فى نشوء الطفل العلمى، ويجعله أقوى ثباتاً، وأرسخ فى الذاكرة مما يتعلمه الإنسان وهو كبير .

وقد أورد الخطيب البغدادى[1] طائفة من حياة السلف الصالح، واهتمامهم بالأطفال، فهذا الحسن يقول : قَدّموا إلينا أحداثكم، فإنهم أفرغ قلوباً، وأحفظ لما سمعوا .

وهذا سعيد بن رحمة الأصبحى يقول : كنت أسبق إلى مجلس عبد الله بن المبارك بليل، معى أقرانى لا يسبقنى أحد، ويجىء هو مع الأشياخ، فقيل له : قد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان، فقال : هؤلاء أرجى عندى منكم، أنتم كم تعيشون ؟! وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم . قال سعيد : فما بقى أحد غيرى .

وهذا الأعمش يروى، فيقول : رأيتُ إسماعيل بن رجاء يأتى صبيان الكتاب، فيحدثهم لكى لا ينسى حديثه .

أما يحيى بن حميد الطويل، أو غيره فيقول : أتينا حماد بن سلمة وبين يديه صبيان يحدثهم، فجلسنا إليه حتى فرغ، فقلنا له : يا أبا سلمة، نحن مشايخ أهلك قد جئناك، تركتنا، وأقبلت على هؤلاء الصبيان ؟! قال : رأيت فيما يرى النائم كأنى على شط النهر، ومعى دلّة أسقى فيها، فناولتها هؤلاء الصبيان . رواها ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٨٠٤) .

وكان يحيى بن يمان إذا جاءه غلام أمرد؛ استقرأه رأس سبعين من الأعراف؛ ورأس سبعين من يُوسف، وأول الحديث، فإن قرأه حدّثه، وإلا لم يُحدثه[2] .

وكان الحسن بن على يقول لبنيه وبنى أخته : تعلّموا فإنكم صغار قومٍ اليوم؛ تكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب[3] .

وكان عطاء بن أبى رباح يقول للغلمان : «اكتبوا؛ فمن كان لا يحسن كتبنا له،

---

(١) (١/ ٢٤٥) كتاب الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، تحقيق : الدكتور محمد رأفت سعيد .
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢) .
(٣) عن : الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى (ص ٢٩) .

ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا»[1] .

وكتب بديع الزمان الهمذانى إلى ابن أخت له يحثه على الجد فى طلب العلم، فقال : أنت ولدى ما دمت والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والقلم أليفك، والدفتر حليفك، فإن قصرت، وما إخالك، فغيرى خالك، والسلام[2].

وذكر ابن عبد البر فى كتابه : جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٠٣) .

قال لقمان لابنه : يا بني، ما بلغت من حكمتك ؟ قال : لا أتكلَّف ما لا يعنينى، قال : يا بنى، إنه قد بقى شىء آخر جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيى القلوب الميتة بالحكمة، كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء[3] . يا بني، لا تتعلم العلم لثلاث، ولا تدعه لثلاث :

لا تتعلمه : لتمارى به، ولا لتباهى به، ولا لترائى به .

ولا تدعه : زهادة فيه، ولا حياء من الناس، ولا رضا بالجهالة .

يا بنى، لا تجادل العلماء فتهون عليهم، ويرفضوك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك،و يشتموك، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك فى العلم، ولمن هو دونك؛ فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم، ولزمهم، واقتبس من علمهم فى رفق .

يا بنى، إن الحكمة أسكنت المساكين مجالس الملوك[4] .

وقال يحيى بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم، فخذ منه، فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شىء من العلم، وأنشد :

تفنَّنْ وخذْ من كل علم، فإنَّما ... يفوقُ امرؤ فى كل فنٍّ له علم

فأنت عدو للذى أنت جاهل ... وأنت لما أتقنته أبداً سِلْم

---

(١) المحدث الفاصل (ص ٣) .

(٢) عن : الهداية الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين (ص ٢٢٨) .

(٣) رواه الإمام مالك فى الموطأ (٢/ ١٦١) (تنوير الحوالك بشرح موطأ مالك للسيوطى) .

(٤) عن : اللب فى الإسلام والطب للدكتور : شوكت الشطى (ط ١) جامعة دمشق (ص ٣٨) .

وقال عبد الله بن مروان لبنيه[1] :

يا بنى، تعلموا العلم، فإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم[2] .

ومما أورده ابن أبى الدنيا ـ رحمه الله ـ فى كتابه «العيال» باب: فى تعليم العلم للأصاغر (٢/ ٨٠٠)، من أخبار السلف الصالح نقتطف الآثار التالية :

عن عروة بن الزبير ﷺ أنه كان يقول لبنيه : أى بَنىَّ، هلموا فتعلموا، فإنكم توشكون أن تكونوا كبار قوم، وإنى كنت صغيراً لا يُنظر إلىّ، فلما أدركتُ من السنّ ما أدركتُ، جعل الناسُ يسألوننى، وما أشدَّ على امرئ أن يُسأل عن شىءٍ من أمر دينه فيجهلُهُ .

وعن يوسف بن موسى قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: مروا على الأعمش وحوله فتيان فقال: انظروا إلى الأعمش قد جمع حوله الصبيان قال الأعمش: ردوهم إن هؤلاء يحفظون عليكم دينكم.

وراح بعد ذلك الأدباء، والكتاب، والحكماء، والعلماء، كلهم ينصحون الأبناء، ويوجّهون الأطفال إلى النهل من فترة الطفولة بالعلم والمعرفة .

فهذا أحمد شوقى يدعو مربى الأمة، ومصلحيها إلى الاهتمام بتعليم الأطفال، والاعتناء بهم؛ لعل جيلاً منهم يفعل العجب العجاب، وينقذ الأمة من رقدتها :

فربّ صغير قومٍ علموه ... سما وحمى المسمومة العرابا

وكان لقومه نفعاً وفخراً ... ولو تركوه كان أذى وعابا

فعلِّمْ ما استطعت لعل جيلاً ... سيأتى يحدث العجب العجابا

حتى إذا ترسَّخ حبُّ العلم، وطلبه فى نفس الطفل، وعقله، انطلق هو ذاتياً لطلبه، يتحمل الصعاب والمشقات فى سبيله، وسهر الليالى فى تحصيله، بدون إلحاح الوالدين .

(١، ٢) للب فى الإسلام والطب للدكتور: شوكت الشطى (ط) جامعة دمشق (ص٣٨).

الأساس العلمى الثانى : حفظ الطفل لقسم من القرآن والسنة، وإخلاص النية بحفظها :

تقدّم معنا فى البناء العقدى للطفل أهمية القرآن والسنة فى تكوين عقلية الطفل، وهما مصدرا إشعاع العلوم، ينيران العقل، ويقوياه، فعلى أقل تقدير يحفظ الطفل من القرآن الكريم الجزء الثلاثين ـ جزء عم ـ وعلى أقل تقدير يحفظ من الأحاديث النبوية أربعين حديثاً . وقد جعلنا فى خاتمة هذا الكتاب أربعين حديثاً تربوياً للطفل تنهاه، وتوجّهه، فلا بأس أن تدرس للأطفال، وتحفظ لهم .

روى ابن عبد البر[1] ـ فى جامع بيان العلم (١/ ١٤٥) ـ قال : وروينا عن أبى هارون العبدى وشهر بن حوشب قالا : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى ﷺ يقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : «ستفتح لكم الأرض، ويأتيكم قوم؛ أو قال : غلمان حديثة أسنانهم، يطلبون العلم، ويتفقهون فى الدين، ويتعلمون منكم، فإذا جاؤوكم فعلِّموهم؛ وألطفوهم، ووسعوا لهم فى المجلس، وأفهموهم فى الحديث»، فكان أبو سعيد ﷺ يقول لنا : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ أمرنا رسول الله ﷺ أن نُوسِّع لكم فى المجلس، وأن نُفَهِّمَكُم الحديث .

وقال ابن الجوزى : قال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنتُ فى إحدى سفراتى ببغداد، فمرَّ بنا أحمد بن حنبل وهو يَعدو، ونعلاه فى يده، فأخذ بى هكذا بمجامع ثوبه، فقال : يا أبا عبد الله، ألا تستحى ؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان ؟! قال : إلى الموت[2] .

وكان فعل الصحابة والسلف أن أول ما يلقنونه للطفل القرآن والسنة؛ لأنهما الركنان الأساسيان فى بناء الطفل عملياً، فعن يحيى بن صالح العبدى قال : أتيتَ الحسن ـ وأنا غلام ـ فقعدت بعيداً من الحلقة، فقال لى : يا بُنيّ، أُدنُ، مالكَ قعدتَ بعيداً؟ قال : قلت : يا أبا سعيد، إنى حسَّنتُ الحصيرَ، قال : لا تفعل، إذا جئت فاجلس إلى جانبى، قال : كنتُ آتيه فيقعدنى إلى جنبه، ويمسح رأسى، ويُملى على الحديث[3] .

---

(١) ورواه البغوى فى شرح السنة (١/ ٢٢٩)، وقال محققه : رواه ابن ماجه والترمذى والحاكم وصححه، وأقره الذهبى .

(٢) صفحات من صبر العلماء (ط ٣ ص ١٢٠) .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٨٠١) .

وعن الأعمش قال : كان إسماعيل بن رجاء يجمع صبيان الكُتّاب يُحدثهم حتى لا ينسى حديثه [1] .

فأنت تلحظ اهتمام السلف الصالح بتعليم الأطفال حديث رسول الله ﷺ وروايته لهم وتقريبهم منه حتى إن إسماعيل بن رجاء يراجع معهم محفوظاته من الرواية، فيسمع لهم خشية النسيانو، وصدق من قال :

إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، وآفة العلم النسيان .

١ ـ من آدابه: تعطير الطفل قبل ذهابه للدرس والمدرسة :

فعن أبى محمد التمار عن أمه ؛ قالت : ربما حملنا أولادَ أيوب السختيانى – من كبار الفقهاء العباد ت ١٣١ هـ فَعَبِقَ لنا من ريحهمُ الطيب، قال : لا أعلمُ إلا قال : ريح المسك [2] .

٢ ـ أثر المعصية والذنوب فى نسيان العلم :

سئل سفيان بن عيينة : هل يُسلب العبدُ العلمَ بالذنب يُصيبه؟قال : ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة]. وهو كتاب الله. وهو أعظم العلم، وهو حظهم الأكبر الذى صار لهم، واختُصُّوا به، وصار لهم حجة عليهم [3] .

٣ ـ تعليم القرآن قبل الحديث الشريف :

وعن الوليد بن مسلم قال : كنا إذا جالسنا الأوزاعى – محدِّث الشام – فرأى

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٥٦١).

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه ابن عساكر فى (أخبار لحفظ القرآن) ، انظر : الجامع فى الحث على حفظ العلم (ص ٢٢٧) .

فينا حَدَثاً قال: يا غلام قرأتَ القرآن ؟ فإن قال: نعم، قال: اقرأ :﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ [النساء] وإن قال: لا، قال: اذهب، تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم[1].

وكان يحيى بن يمان إذا جاءه غلام أمرد استقرأه رأس سبعين من الأعراف، ورأس سبعين من يوسُف، وأول الحديد، فإن قرأه حدّثه، وإلا لم يحدثه[2].

ومما قاله الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لمحمد بن الحسن الشيبانى عندما جاء إليه ـ وهو ابن أربعة عشر عاماً ـ يطلب العلم عنده قال : «استظهر القرآن أولاً ؛ لأن استظهار القرآن مدخل فى صفاء المجلس، (يريد الفقه)، وتجويد الفهم أى مَدْخل »[3]

٤ ـ **وأما عن إخلاص النية لله تعالى** فى حفظ القرآن والسنة وفى طلب العلم عامة فهى الركن الركين الذى يعطى للعلم رائحة زكية تفوح حتى قيام الساعة، وتضفى على العلم جمالاً ينشره الله تعالى بين الخلائق، ومما ورد من الآثار :

عن ابن عباس ﷺ قال : «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»[4].

ومن آثار الإخلاص فى النية : العمل بالعلم والاستعانة بالعبادة ثم نشره .

قال وكيع : «كان إسماعيل بن إبراهيم يقول : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به» .

وقال الحسن بن صالح: «كنا نستعين على طلبه (أى : طلب علم الحديث) بالصوم»[5] .

---

(١) الجامع فى الحث على حفظ العلم (ص٧١). قال محققه : وسنده حسن .
(٢) المصدر السابق (ص ١٠٤) .
(٣) إعلاء السنن (١ / ٢٠٣) مقدمة قواعد فى علوم الفقه .
(٤) المصدر السابق (ص ١٦٩) .
(٥) المصدر السابق .

وقال سفيان : «تعلموا هذا العلم، فإذا علمتموه فتحفظوه، فإذا حفظتموه فاعملوا به، فإذا عملتم به فانشروه»[1] .

٥ ـ وعن أوقات الحفظ قالوا :

قال المنذر للنعمان ابنه : «يا بنى أحب لك النظر فى الأدب بالليل، فإن القلب بالنهار طائر، وبالليل ساكن، فكلما أوعيتَ فيه شيئاً عَلِقَهُ»[2] .

وعن أبى مسعود أحمد بن الفرات قال : «لم نزل نسمع من شيوخنا يذكرون أشياء فى الحفظ، فأجمعوا أنه ليس شيء أبلغ فيه إلا كثرة النظر، وحفظ الليل غالب على النهار»[3] . والمقصود بحفظ الليل بعد النوم فيه والاستيقاظ، قال إسماعيل بن أويس : «إذا هممتَ أن تحفظَ شيئاً فنم، وقم عند السحر، فأسْرِج، وانظر فيه، فإنك لا تنساه بعد، إن شاء الله»[4] .

٦ ـ ومما يساعد على الحفظ تقسيم المحفوظ إلى أجزاء :

قال أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى : «ينبغى له أن يتثبت فى الأخذ، ولا يُكثر، بل يأخذ قليلاً قليلاً حسب ما يتحمله حفظه، ويقرب من فهمه، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فقد روى أن حماد بن أبى سليمان قال لتلميذ له: «تعلم كل يوم ثلاث مسائل، ولا تزِد عليها شيئاً»[5] .

«فإذا اشتهى التعلم بنشاطٍ عاد إليه، وإن اشتهاه بغير نشاط لم يعرض له، فإنه لا يثبت ما يتعلمه فى قلبه، وإذا اشتهى مع نشاط يكون فيه ثبت فى قلبه ما يسمعه

(١ - ٥) إعلان السنن (ص ١٨١ -١٨٧).

وحَفِظَهُ»[1]. ثم روى عدداً من الآثار عن أئمة حفاظ الحديث، أنهم كانوا لا يكثرون فى أخذ الحديث فى الجلسة الواحدة، وإنما أقصاه خمسة أحاديث :

قال الزهرى : «من طلب العلم جُملةً فاته جُملةً، وإنما يُدرك العلم حديث وحديثان»[2] .

وقال أيضاً : «إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالي، أخذاً رفيقاً، تظفر به»[3] .

وقال شعبة : «كنتُ آتى قتادة، فأسأله عن حديثين، فيحدثنى ثم يقول : أزيدك؟ فأقول : لا، حتى أحفظهما، وأتقنهما»[4] .

وقال سفيان : «كنتُ آتى الأعمش ومنصورًا فأسمع أربعة أحاديث، خمسة، ثم أنصرف، كراهة أن تكثر وتفلت»[5] .

٧ ـ ومما يرسخ الحفظ : مذاكرة العلم ومراجعته؛ سواء لنفسه أومع غيره :

فعن أنس بن مالك ﷺ : «كنا عند النبى ﷺ، فنسمع منه الحديث؛ فإذا قمنا تذكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه» رواه أبو هلال العسكرى (فى الحث على طلب العلم والاجتهاد فى جمعه). قال محققه : وإسناده ضعيف، لكن توبع من طريق أبى يعلى (٤٠٩١) بلفظ : «كنا قعوداً مع نبى الله ﷺ فعسى أن يكون قال : ستين رجلاً، فيحدثنا الحديث، ثم يدخل لحاجته، فنتراجعه بيننا، هذا، ثم هذا، فنقوم كأنما زُرع فى قلوبنا»[6] .

وروى العسكرى بسند صحيح عن على - كرم الله وجهه - قال : «تزاوروا، وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يُدْرس»[7] .ولهذا قال ابن سينا فى كتاب «السياسة»: فإذا تهيأ الصبى للتلقين، ووعى سمعه، أخذ فى تعلم القرآن،وصُوّرت له حروف

(١-٧) إعلان السنن .

الهجاء، ولُقّن معالم الدين .

وإليك نموذجاً فى حفظ الأطفال للحديث، واعتنائهم به كأساس علمى ينطلقون منه :

قال البخارى [1] : ألهمت حفظ الحديث، وأنا فى الكُتَّاب، قيل له : كم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال : عشر سنين، أو أقل، ثم خرجت من الكتاب، فجعلت أختلف إلى الداخلى وغيره، فقال يوماً : فيما كان يقرأ للناس – سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم– فقلت : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني، فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل، فنظر فيه، ثم رجع فقال : كيف هو يا غلام ؟ فقلت: هو الزبير، وهو ابن عدى عن إبراهيم، فأخذ القلم، وأصلح كتابه، وقال لى : صدقت .

وكان البخارى إذ ذاك ابن إحدى عشرة سنة، فلما طعن فى ست عشرة سنة حفظ كتاب ابن المبارك، ووكيع، وبعد ذلك بسنتين صنف كتاب : «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنف «التاريخ» فى المدينة عند قبر الرسول ﷺ، قال حاشد بن إسماعيل : كان البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة، وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فلمناه بعد ستة عشر يوماً، فقال : قد أكثرتم علىَّ، فاعْرضوا على ما كتبتم، فأخرجناه، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نُحْكِم كُتُبنا من حفظه .

الأساس العلمى الثالث : اختيار المُدَرِّسِ الصالح، والمَدْرَسَةِ الصالحة للطفل :

اهتم الصحابة – رضوان الله عليهم – بإحضار أطفالهم مجالس الرسول ﷺ منذ اللحظة الأولى من ولادتهم ليحتكهم بيده الشريفة، وليكون أول ريق يدخل

(١) انظر : فيض البارى شرح صحيح البخارى للعلامة الشيخ محمد أنور الكشميرى – رحمه الله تعالى (١ / ٣٣) .

أفواههم مختلطاً بريق رسول الله ﷺ ثم لم يلبثوا أن يحملوهم معهم وهم فى مرحلة الرضاعة إلى مجلس الرسول ﷺ والصلاة معه، فيسمع الرسول ﷺ صوت الأطفال الرضع، فيسرع فى صلاته، بل إنه ليشاهد الحسن أو الحسين أو كليهما معاً وهو يخطب، فيشاهدهما يأتيان المسجد وهما يتعثران فى المشي، فينزل من على المنبر، ويقطع خطبته ﷺ ويحمل الطفلين، وكل ذلك تقدم معنا، وتقدم أيضاً حفظ الأطفال أحاديث الرسول ﷺ من فمه الشريف مباشرة . فكثيرة هى الأحاديث التى يرويها صغار الصحابة من أمثال أبى سعيد الخدري، وأنس بن مالك، والربيع بنت معوذ، وجابر بن سمرة، والحسن والحسين ﷺ وغيرهم، كذلك كل واحد منهم يروى فيقول : سمعت رسول الله ﷺ .

ولقد أرسل الله الرسل للبشر من أفضلهم فى قومهم، وأحسنهم خلقاً، وذلك لتقتدى بهم أقوامهم .

ولقد تميزت الأمة الإسلامية عن غيرها بطلب العلم بالسند، واتصاله، ففى كل علم من العلوم الإسلامية هناك اتصال السند، ولا يكتفون فقط باتصال السند، وإنما يتجاوزون ذلك بطلب علوّ السند أى أن يكون هناك أقل ما يمكن من الشيوخ فى السند، وتلك مطلب الهمم العالية، وبالتالى كانوا يبحثون عن الشيخ والعالم الذى يملك سنداً عالياً ليتصلوا به .

ولما كثرت البدع والأهواء، بدأ العلماء يحذرون طلبة العلم بقولهم : إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم، قالها عبد الله بن المبارك وغيره، وبالتالى بدأت عملية الانتقاء، والاختيار، والتحذير .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً، ينتزعُهُ من العباد، ولكن يقبض العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذ الناس رُؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلوا؛ فأفتوا بغير علمٍ،

فضلُّوا وأضلوا». متفق عليه .

فلابد من البحث عن العالم، وعن المدرس الصالح العالم بما يدرس فيه، المتمكن من علمه، واجتناب أدعياء العلم وأنصافه، وليست الشهرة هى الحكم، وإنما ثناء أهل العلم على العالم دليل علمه .

وقد انتشر فى عصرنا ما حذر منه الرسول ﷺ ، وحذر منه السلف الصالح، فحسبوا أن الدين قصص وحكايات، وليس أحكاماً شرعية، وإذا ما تكلموا بالفقه بان جهلهم فأفْتوا بغير علم، فضلوا وأضَلّوا :

روى ابن أبى شيبة فى مصنفه، والمروزى فى كتاب العلم عن خباب بن الأرت رضي الله عنه أنه رأى ابنه عبد الله عند قاص (أى يقص القصص : حكواتي)، فلما رجع، اتَزَر، وأخذ السوط، وقال : أَمَعَ العمالقة ! هذا قرن قد طلع ! (أى : بدعة حدثت)[1] .

وأخرج العقيلى وأبو نعيم فى الحلية –بسند صحيح– عن عاصم ابن بهدلة قال: كنا نأتى أبا عبد الرحمن السلمي، ونحن غِلمةٌ أيفاعٌ، فيقول : لا تجالسوا القصاص[2].

لهذا كان الصحابة والسلف حريصين كل الحرص على اختيار المدرس الصالح لأطفالهم، وكانوا يعنون به عناية فائقة، ولهم ولع شديد به؛ لأنه هو المرآة التى يراها الطفل، فتنطبع فى نفسه وعقله،وهو مصدر التلقى للطفل .

ومن شدة اهتمامهم به أنهم ينصحون أبناءهم فى أخذ الأدب قبل العلم، وسيأتى معنا فى البناء الخلقى للطفل فى ركن : أساس الأدب مع العلماء، وإذا ما تطلب الأمر الرحلة والسفر للوصول إلى المُدرِّس الصالح فهذا حبيبٌ إلى قلوبهم،

---

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للزَّبيدى (١ / ٢٤١).

(٢) المصدر السابق . وفى عصرنا ينطبق على (أفلام الكرتون) حقيقة هذا الوصف، فضلاً عن أن (أفلام الكرتون) إن كانت معربة فهى مؤلفة ممن لا دين لهم، ولا أخلاق. فإشغال الطفل بالمفيد استغناء عن مثل ذلك، إن شاء الله .

سهل على نفوسهم، يتلقونه بصدر رحب بلا مشقة، أو أى صعوبة، ومعلوم أن الرحلة والسفر لها أعباؤها المالية على الأبوين، ولكن فى سبيل بناء الطفل العلمى بشكل سليم يهون عليهم كل مال، وكل غال ونفيس؛ ولهذا قال ابن سينا فى كتاب «السياسة» باب : سياسة الرجل ولده :

فينبغى أن يكون للصبى مؤدب عاقل، ذو دين، بصير برياضة الأخلاق، حاذق بتخريج الصبيان، وقور، رزين بعيد عن الخفة والسخط، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي، غير كز[1] ولا جامد، وأن يكون حلواً، لبيباً، ذا مروءة، ونظافة، ونزاهة .

وإلى هذا ذهب أمراء المسلمين فى الحصول على المُدرِّسِ الصالح لتعليم أولادهم.

قال أبو بكر بن جابر ـ خادم أبى داود: كنت ببغداد، فصلينا المغرب، إذ قرع الباب ففتحته، فإذا خادم يقول : هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن، فدخلت إلى أبى داود، فأخبرته بمكانه، فأذن له، فدخل، وقعد، ثم أقبل عليه أبو داود، وقال : ما جاء بالأمير فى مثل هذا الوقت ؟ قال : خلال ثلاث . قال : وما هى ؟ قال : تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً، لترحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، قال : هذه واحدة، هات الثانية .

قال : تروى لأولادى كتاب السنن، قال : نعم . هات الثالثة .

قال : تفرد لهم الرواية، فإن أولاد الخلفاء لا يجلسون مع العامة، فقال : أما هذه فلا سبيل إليها؛ فإن الناس شريفهم ووضيعهم فى العلم سواء .

قال جابر: فكانوا يحضرون بعد ذلك، ويقعدون، ويَضْرِبُ بينهم وبين الناس ستراً، فيسمعون مع العامة[2].

---

(١) الكز : المنقبض واليابس، يقال : ذهب كز، أى : صلب جداً .

(٢) الإمام أبو داود ومكانة كتابه السنن لتقى الدين الندوى .

وروى أن عتبة بن أبى سفيان قال لمؤدب ولده : يا عبد الصمد، ليكن أول ما تبدأ به إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، وعلِّمهم كتاب الله، ولا تستكرهم عليه فيملّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، وروِّهم من الشعر أعفّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلّة للفهم، وتهدّدهم بي، وأدّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الرفيق لا يضع الدواء إلا بعد معرفة الداء، وروّهم سير الملوك، وجنِّبهم محادثة النساء، ولا تتكلنَّ على عذر مني، فإنى اتكلت على كفاية منك، واستزدنى بزيادتك إياهم، أزدك إن شاء الله[1].

ثم يؤكد الماوردى ضرورة، وأهمية اختيار المعلم، فيقول[2]:

ثم يجب أن يجتهد فى اختيار المعلم، والمؤدب له اجتهاده فى اختيار الوالد، والظئر، بل أشدّ منه؛ فإن الولد يأخذ من مؤدبه من الأخلاق، والشمائل، والآداب، والعادات أكثر مما يأخذ من والده؛ لأن مجالسته له أكثر، ومدارسته معه أطول، والوالد قد أمر حيث سلم إليه بالاقتداء به جملة، والائتمار له دفعة، وإذا كان هكذا فيجب ألا يقتصر من المعلم والمؤدب، على أن يكون قارئاً للقرآن وحافظاً للغة، أو راوياً للشعر حتى يكون تقياً، ورعاً، عفيفاً، دَيِّناً، فاضل الأخلاق، أديب النفس، نقى الجيب، عالماً بأخلاق الملوك وآدابهم، عارفاً بجوامع أصول الدين والفقه، وافياً بما ذكرنا أنه يحتاج إلى أن يعلمه على الترتيب، فإن فاته شيء مما ذكرنا، فلا يفوته التقى، والدين، والفقه.

وقال الترمذى الحكيم – رحمه الله : « صلاح الصبيان فى المكتب، وصلاح قطاع الطريق فى السجن، وصلاح النساء فى البيوت»[3].

---

(١) نصيحة الملوك، للماوردى (ص ١٧٢) .

(٢)نصيحة المصدر السابق (ص ١٧٠) .

(٣) الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى (ص ٩١) .

أما اليوم فقد شن أعداء الإسلام حملةً حاقدة،ورفعوا لواءً إلحادياً لئيماً فى تدمير الطفل المسلم، فاختاروا له المعلم الكافر والفاسق، وهيؤوا له مدرسة عصرية تبعده عن منهج الله وشرعه، وما هذا إلا لجهل المسلمين، وهو دليل أكيد على غفلتهم، وهذا الذى نقوله ليس كلاماً جزافاً، وإنما الواقع الذى نعيشه اليوم، وما صرح به أولئك الغزاة المعتدون الآثمون خير دليل، وإليك بعض خططهم :

فهذا القس «صموئيل زويمر» ينشر فى كتابه «مهد الإسلام» خداعه للأطفال المسلمين، فيقول :

«والتعليم المدرسى والتربية الأخلاقية الغربية قد أسفرا عن نتائج جمة، وأثمرا ثمرات نافعة فى الأطفال والمراهقين على السواء، لقد استطعت أن أجمع التلاميذ المسلمين مرة ، وأضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية، ثم حولت عليها نوراً قوياً، وأقنعتهم بذلك أن الأمر بالصيام لشهر رمضان ليس آتياً من عند الله؛ لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة فى بعض البلاد»[1].

ولم يكتف هذا المجرم الحاقد اللئيم ـ والأكثر إجراماً الآباء الذين يرسلون أطفالهم لمثل هؤلاء ـ بهذا، بل عقد مؤتمراً لمجموعة المبشرين المنتشرين فى البلاد الإسلامية فى مدينة القدس عام (١٩٣٥) فى جبل الزيتون، فبعد أن استمع إلى مشاكلهم التى يلاقونها فى البلاد الإسلامية، وصعوبة عملهم الشاق أمام العقيدة الإسلامية، وقف يبين لهم أهدافهم فى تضليل عقل وفكر الطفل المسلم، فقال :

«إنكم أعددتم نَشْءًا فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من دار الإسلام، ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراد له الاستعمار،لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همّه فى دنياه إلا فى الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال

(١) الغارة على العالم الإسلامى .

فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات، وإنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات»[1]. فإذا علمت أن كلام القس هذا فى عام (١٩٣٥) ما بالك الآن بعد مضى خمسين سنة ؟!

أما المستشرق الحاقد «جيب» الذى هو عضو فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة، وهذا من عجائب البلاد الإسلامية الغافلة الجاهلة، فيقول فى مقدمة كتاب : «إلى أين يسير الإسلام؟»:

«لقد استطاع النشاط التعليمى والثقافى عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين – ولو من غير وعى منهم – أثراً جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللبّ المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار .

فالواقع أن الإسلام كعقيدة وإن لم يفتقد إلا قليلاً من أهميته، وسلطانه، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانه[2].

ويقول الفرنسى (مسيو آتين لامي) عام ١٩٠١ فى مجلة (العالمين)الفرنسية :

«إن طريقة تربية أولاد المسلمين، وإن كان من التأثير ما بيناه، فإن تربية البنات فى مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد، ووصولنا إلى نفس الغاية التى وراءها نسعى، بل أقول : إن تربية البنات بهذه الكيفية هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بيد أهله»[3].

فصورة الراهبات فى نفوس بنات المسلمين لها تأثير كبير، ولو من غير كلام،

---

(١) جذور البلاء لعبد الله التل (ص ٢٧٥) .
(٢) تجربة التربية الإسلامية للدكتور سعيد رمضان البوطى .
(٣) انظر : تربية الأولاد للشيخ عبد الله علوان – رحمه الله – (٢ / ٨٠٥) .

فالعين مفتاح القلب . وإذا فسد القلب فسد الجسد كله . وتقول النصرانية (آن ميليغان) :

«لقد استطعنا أن نجمع فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وبالتالى ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة».

فانظر أيها الأب الغيور إلى كلمة (النفوذ المسيحي) على بنات المسلمين .

لقد سرت إلى المسلمين أن طلب العلم فى المدارس الأجنبية أفضل وأحسن، ولنفرض جدلاً ذلك ـ وإن كان لا يصح فى المجتمع ـ فهل فى سبيل أخذ الشهادة العلمية تضيع شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ وهل الآخرة أفضل من الدنيا؟ وهل الرزق فى الكرتونة أم بيد الله ؟ وهل السعادة فى الشهادة العلمية أم بالشهادة فى سبيل الله؟ نعم إن الإسلام دين العلم فنزلت أول آية (اقرأ) ولكن طلب العلم ليس على حساب العقيدة والدين .

وهذا الشيخ العلامة محمد الخضر حسين ـ شيخ الأزهر سابقاً ـ رحمه الله تعالى ـ يحذر، ويندِّد، وينصح الأمة، ويبين للآباء خطر هذه المدارس فى فصل عنوانه : (أبناء المسلمين فى مدارس التبشير) أضعه بين يديك كاملاً لعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد :

«من الذى يستطيع أن يهيئ لولده عيشاً راضياً، وينبته نباتاً حسناً، فينشأ سليم القلب، طاهر اللسان، صديقاً لأسرته، عاملاً على إعلاء شأن أمته؟! ولكنه يأبى أن يفعل هذا الذى ينصح به لولده، ويجنى ثمار الحمد من عواقبه، فيعمد إليه وهو صافى الفطرة، فيلقيه فى بيئة يتولاه فيها من لا يرقبون إلاًّ ولاذمة، فلا يزالون يلقنونه زيفاً، ويبذرون فى نفسه شراً، والذى خبث لا يخرج إلا نكداً . . ذلك مثل المسلم الذى يهبه الله ولداً ليسلك به هداية، ويعده لأن يكون عضواً يرتاح لسعادة قومه،

ويتألم لشقائهم، فإذا هو يبعث به إلى مدارس أُسِّست لمحاربة الدين الحنيف، ولقتل العاطفة الإسلامية، وهى المدارسُ التى تنشئها فى بلادنا الجمعيات التى يقال لها : جمعيات التبشير .

إن الذى يقذف بولده بين جدران هذه المدارس، لا تكون جريمته من جريمة أولئك الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية إملاق ببعيد . . . ألم يقم الدليل إثر الدليل على أن القائمين فيها بأمر التعليم يلقنون أبناء المسلمين معتقدات ديانة غير إسلامية، ويحملونهم على تقاليدها، ويتعرضون للطعن فى شريعة الإسلام بطرق شأنها أن تؤثر على الأطفال، ومن هم بمنزلة الأطفال فى عدم معرفتهم بحقائق الدين معرفة تقيهم من شرّ ذلك الإغواء؟!

ليس الذى يزجّ بابنه فى مدارس التبشير بالذى يقتل نفساً واحدة، ولكنه يقتل خلقاً كثيراً، ويجنى بعد هذا على الأمة بأجمعها، ولا أقول هذا مبالغة، فقد يصير هذا الولد أستاذاً من بعد، ويفسد على طائفة عظيمة من أبناء المسلمين أمر دينهم. ووطنيتهم، كما أفسد عليه أولئك القسس أمر دينه، ووطنيته، وقد أرتنا الليالى أن من المتخرجين فى هذه المدارس من يملك سلطة على قوم مسلمين، فيجدون فيه من الغلظة، والمكر، وعدم احترام الشريعة، ما لا يجدونه فى الناشئ على غير الإسلام .

قد ينال الطالبُ فى هذه المدارس علماً، وليس هذا العلم فى جانب ما يخسره من دينه، وما يفوته من الإخلاص لأمته بالشيء الذى يثقل وزنه، ولكنها الأهواء التى أخذت القلوب،فتبعث الرجل على أن يأخذ بيد ابنه، وهو كالملاك طهراً وطيبة، ويقوده إلى حيث يشهد ازدراء قومه، والطعن فى الحنيفية السمحة، فلا يلبث أن ينقلب ذلك الطهر رجساً، وذلك الطيب خبثاً، وتكون العاقبة ما نسمعه عن كثير من المتخرجين من هذه المدارس، وما نرى .

عرفتُ أيام كنت فى دمشق أن ذا منصب رفيع فى العسكرية، جاء بابنه الصبى

إلى الأستاذ صاحب مدرسة «التهذيب الإسلامي»، وذكر له أنه أدخل ابنه فى مدرسة من المدارس الأجنبية، فأزاغوا عقيدته، وبلغ به الحال أن صار يدعونى وأمه إلى النصرانية، ثم رغب إلى الأستاذ، وهو مملوء حزناً وندماً : أن يعالج قلب هذا الغلام، ويعرض عليه محاسن الإسلام لعله يزكّى .

وقد عرف القراء اليوم نبأ ذلك القسيس الذى صدرت صحف هذا الشهر شهر رمضان ـ طافحة بإنكار ما قاله، وهو فى درس يلقيه بإحدى هذه المدارس طعناً فى الإسلام، ملأ فمه بالطعن فى الدين دون أن يحترم شعور بعض أبناء المسلمين، الذين سبقوا إلى الجلوس بين يديه، وقد حملت الغيرة أحد الطلاب الذين لا تزال فيهم بقية من إيمان على أن أنكر قوله، وفضح أمره، وإن فى ذلك لعبرة لقوم يؤمنون .

ونحن لا نكثر من الإنكار على ذلك القسيس، ولا على القائمين بشؤون هذه المدارس؛ فإنهم يقضون حاجة فى نفوسهم، أو ينفذون خطة رسمت لهم، وإنما نوجه إنكارنا، بل موعظتنا إلى إخواننا المسلمين الذين يقذفون أبناءهم فى بيئة لا يخرجون منها إلا وقد غشى نفوسهم ضلال من فوقه ضلال، ومن فوقه لوثة أخلاق حقيرة، ظلمات بعضها فوق بعض، ولظلمات الآخرة أشدّ، وأبقى »[1] .

وقد استطردنا فى هذه الفقرة؛ لما لها من أهمية كبرى فى عصرنا الحالي، فالمعذرة من القارئ الكريم .

الأساس العلمى الرابع : إتقان الطفل اللغة العربية:

اللغة العربية مفتاح العلوم كلها، وكلما قوى الطفل باللغة كان سبباً فى قوته فيما بعد لأى علم من العلوم رغب فى تعلمه، وأحبّ أن يكسبه، واللغة العربية لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، رغّب فى تعليمها النبى ﷺ، واهتم بنشوء

(١) الهداية الإسلامية (ص ١٥١) .

الأطفال وقد أتقنوها، ومن شدة اهتمامه بها يقبل فداء أسرى بدر[1] بتعليم كتابتها، وقراءتها لأطفال المسلمين، فكان كل أسير يفدى نفسه بتعليم عشرة من صبيان الصحابة اللغة العربية، وإتقانها .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال : فجاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه، فقال : ما شأنك؟ قال : ضربنى معلمي، قال : الخبيث يطلب بدخل بدر، والله لا تأتيه أبداً . رواه الحاكم فى مستدركه (٢ / ١٤٠) وقال : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده عن أبى جعفر قال : قال رسول الله ﷺ: «أَعْرِبوا الكلامَ، كى تُعربوا القرآن»[2]، قال : ثم قال أبو جعفر : لَولا القرآن وإعرابه، ما بالَيْتُ أنى لا أعرف منه شيئاً .

وروى بسنده إلى عمر ﷺ قوله : تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تعلمون القرآن .

وروى بسنده عن عبد الله بن مسعود – ﷺ – أنه قال : أعربوا القرآن فإنه عربي.

وقد ذكرنا فى البناء العقدى فى فهم الطفل القرآن الكريم جملة من الآثار من كون تعلم إعراب القرآن يساعد على فهمه وتدبره .

فإذا أخطأ طفل ما، حزّ فى نفوسهم ذلك الخطأ .

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يمرّ على صبية يرمون بالنبال[3]، فيخطئ أحدهم فى

---

(١) كما فى الروض الأنف (٢ / ٩٢) وطبقات ابن سعد (ص ١٤) قسم (١) ج (٢)، والتراتيب الإدارية للكتانى (١ / ٤٩، ٢ / ١٢٧، ٢٩٦، ٢٩٧) .

(٢) فضائل القرآن لأبى عبيد القاسم بن سلام (ص ٣٤٩) وأشار محققوه فى الهامش إلى كنز العمال (١ / ٦٠٧) .

(٣) عن : أصول النحو لسعيد الأفغاني، ورواه العسكرى فى : شرح المواهب .

كلامه، فينصب المرفوع فيقول : يا أمير المؤمنين، إننا قوم متعلمين، فيغضب عمر لهذا الخطأ، ويقول : والله، إن خطأكم فى رميكم، أحبّ إلى من خطئكم فى لغتكم .

وكان ابن عمر يضرب بنيه على اللحن[1] .

ومما أورده ابن عبد البر فى كتابه: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٧) قول الضحاك فى تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران] . قال «حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً، فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب، كان له ذلك عوناً كبيراً على مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ . . . ».

ثم قال ابن عبد البر : ومما يُستعان به على فهم الحديث ما ذكرناه من العون على كتاب الله وهو العلم بلسان العرب، ومواقع كلامها، وسعة لغتها، واستعارتها، ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه، وسائر مذاهبها، لمن قدر، فهو شىء لا يستغنى عنه . وكان عمر بن الخطابﷺ يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة والفرائض واللحن يعنى النحو، كما يتعلم القرآن .

ثم أورد ابن عبد البر : عن أبى عثمان قال : كان فى كتاب عمر تعلموا العربية .

وعن عمر بن زيد قال : كتب عمر إلى أبى موسى : أما بعد، فتفقهوا فى السنة، وتفقهوا فى العربية .

وقال الشعبى : النحو فى العلم كالملح فى الطعام .

---

(١) كتاب العيال لابن أبى الدنيا، تحقيق : د/ نجم خلف (١ / ٥٠٨)، وأورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١٦٨).

وقال شعبة : مثل الذى يتعلم الحديث ولا يتعلم النحو، مثل برنس لا رأس له.

وقال الخليل بن أحمد :

أى شيءٍ من اللباسِ على ذى السـ ـرِّ أبهى من اللسان البَهى
ينظّمُ الحجةَ الشتيتة فى السلـ ـك من القول مثل عقد الحليّ
وترى اللحن بالحسيب أخى الهيـ ـئة مثل الصدا على المشرفيّ
فاطلب النحو للحِجا ج وللشعر مقيماً والمسند المرويّ
والخطاب البليغ عند جواب القو ل يزهو بمثله فى النديّ

وقال الإمام الشافعى : «من حفظ القرآن عظمت قيمته، ومن طلب الفقه نَبُلَ قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر فى النحو رقّ طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم» . انتهى .

وروى أبو عُبيد القاسم بن سلام بسنده عن يحيى بن عَتيقٍ قال : «قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يتعلّم العربية؛ يلتمس بها حسنَ المنطق، ويُقيم بها قراءَته؟ فقال : حَسَنٌ يا بن أخي، فَتَعلَّمْها، فإن الرجل ليقرأ الآية فَيَعْيَا بوجهها، فيهلَكُ فيها»[1].

وروى عن أبى رجاء محمد بن سيف قال : قلت للحسن : ما تقول فيمن يتعلّم العربية، أما يخاف أن يكون يزيدُ فى الهجاء؟ فقال : ليس به بأس، قال عمر بن الخطاب : عليكم بالتفقُّه فى الدين، والتفُّهم فى العربية، وحسن العبارة .

وإن البعض يحج ويعتمر بنية الطلب من الله تعالى أن ييسر لابنه تعلم النحو واللغة، كما فعل يعقوب والد ابن السّكيت اللغوي، فكان عمدة فى اللغة[2] حتى إنه

---

(١) انظر : فضائل القرآن لأبى عبيد القاسم بن سلام، تحقيق مجموعة من المحققين (ص٣٥٠) ط. ابن كثير .

(٢) انظر : تهذيب اللغة لابن السكيت (١ / ٥).

ليصحح أخطاء الأستاذ وهو صغير، وقال أبو الحسن الطوسى : كنا فى مجلس أبى حسن على اللحياني، وكان عازماً على أن يُملى نوادره ضِعفَ ما أملى، فقال يوماً : تقول العرب: «مُثقَّل استعان بذقنه» فقام إليه ابنُ السكيت وهو حَدَثٌ فقال : يا أبا الحسن، إنما هو «مُثْقَلٌ استعانَ بدَفّيهِ» يريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبيه.

فقطع أبو الحسن الإملاء، فلما كان المجلس الثانى أملى فقال : تقول العربُ:«هو جارى مكاشري»، فقام إليه ابنُ السكيت فقال : أعزك الله، وما معنى «مكاشري» إنما هو «مُكاسري» أى كَسْرُ بيتى إلى كَسْرِ بيته، قال : فقطع اللحيانى الإملاء، فما أملى بعد ذلك شيئاً .

وكان المتوكل قد ألزمه (أى : ابن السكيت) تأديب ولده المعتز بالله، فلما جلس عندَه، قال له : بأى شيء يُحب الأمير أن نبدأ (أى بأى علم) ؟ فقال المعتز : بالانصراف، قال يعقوب بن السكيت : فأقوم ؟ قال المعتز : أخفتُ نهوضاً منك، فقام، فاستعجل فعثر بسراويله؛ فسقط، والتفتَ إلى يعقوب خجلاً؛ وقد احمر وجههُ، فأنشد يعقوب :

يصاب الفتى من عَثرةٍ بلسان ... وليس يُصاب المرءُ من عثرةِالرِّجْلِ
فعثرتُهُ بالقول تُذهبُ رأسَهُ ... وعثرتهُ بالرجْلِ تَبْرا على مَهْلِ

فلما كان من الغد، دخل يعقوب على المتوكل، فأخبره بما جرى، فأمر له بخمسين ألف درهم، وقال: قد بلغني البيتان.

ولما كثر خطأ أطفال المسلمين في قواعد اللغة العربية، تنبه لذلك علي بن أبي طالب ﷺ وخاطب العلماء بتقعيد القواعد، وتعليمها للأطفال، خشية من استفحال عجمة اللسان:

فقد روى أن ابنة أبى الأسود الدؤلى قالت له ذات يوم: ما أحسنُ السماء؟ فقال: نجومُها، فقالت: ما أردت ذلك، وإنما أردت التعجب بعظمة السماء، وليس السؤال عما فيها، فكان عليها أن تقول: ما أحسنَ! فتوجه أبو الأسود للإمام على -كرم الله وجهه- وأخبره بذلك، فرفع الإمام له أوراقا، وطلب منه تقعيد قواعد النحو[1].

وانطلق السلف الصالح فى نصح الأطفال طلبة العلم بالاهتمام باللغة العربية؛ لأنها مفتاح العلوم الأخرى كافة:

فقد أورد ابن عبد البرقول عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون قال:أتيت المنذر بن عبد الله الحزامى، وأنا حديث السن، فلما تحدثت اهتز إلىّ على غيري، لما رأى فى بعض الفصاحة، فقال لي: من أنت ؟ فقلت له:عبد الله بن عبد العزيز بن أبى سلمة، فقال: اطلب العلم، فإن معك حذاءك وسقاءك[2].

وقد كانت نشأة الإمام الشافعى -رحمه الله- وهو صغير،يتعلم من القبائل العربية حيث رحل إليها، وعاش معها ؛ ولهذا كان فصيح اللسان ، وعمدة اللغة العربية بين العلماء.

ويوصى ابن سينا فى كتابه «السياسة» باب: سياسة الرجل ولده، بما يلى:

«وينبغى أن يحفظ الرجز، ثم العقيدة؛ لأن رواية الرجز وحفظه أيسر؛إذ إن بيوته أقصر، ووزنه أخف على أن يختار من الشعر ما قيل فى فضل الأدب، ومدح العلم، وذم الجهل، وما حث منه على بر الوالدين، واصطناع المعروف، وقرى الضيف،فإذا فرغ الصبى من حفظ القرآن، وألم بأصول اللغة، نظر عندئذ إلى ما يلائم طبيعته، واستعداده ».

(١) شرح زينى دحلان لمتن الآجرومية.
(٢) جامع بيان العلم وفضله(١/ ٨٦) .

أما أبو الحسن الماوردي، فينبه إلى أهمية تعليم الطفل اللغة العربية، وإجادتها فيقول:

«فإذا بلغ التأديب والتعليم، فالوجه أن يبدأ بتعليم القرآن مع اللغة العربية ؛ لأنها اللغة التى أنزل الله بها كتابه، وخاطب بها فى شرائع دينه ، وفرائض ملته ، وبها بلغ رسول الله ﷺ سُنَّته ، وبها ألفت الكتب الدينية ، والحكمية، والجدية، والهزلية، وبها تكتب رسائلهم، والصكوك التى جعلها الله وثائق بينهم، فلا بُدَّ للناشئ فى هذه الملة من تعلمها، وإلا كان جاهلا بالدين، منقوصاً فى الملل» .

«مع أن لهذه اللغة من فضيلة ما ليس للغة من اللغات من الفصاحة ، والبيان ، والطلاوة على اللسان، والحلاوة فى السماع والآذان، وكثرة التصاريف، واحتمال المقاييس النحوية ، وسعة الألفاظ، ووسط الحروف بين القلة والكثرة، وأشباه هذه الخصال ما لو تعلمت تجملاً، واستفيدت تأدباً، لكانت لذلك موضعاً؛ ولهذا كان الملوك العجم يتعلمونها، فإن كثيراً منهم يستعملها فى أوقات حَفْلَته، ومجالس زينته».

ويؤكد الماوردى رأى ابن سينا فى تعلم الأخف من اللغة بقوله:

والوجه فى تعليم اللغة: أن يقتصد إلى الأخف فالأخف من كتبها، والأسهل فالأسهل من مؤلفاتها، ومصنفاتها، وألا يشغل الأولاد بالغريب الوحشي، والنادر الأجنبى ، ولا بدقائق النحو، ودواوين العروض؛ فإن ذلك مما يشغله عن المعانى ، وإنما تعلم الألفاظ قصداً إلى معرفتها، فإذا أفنى الإنسان عمره فى تعلم الألفاظ فاتته المعاني، إلا أن يكون ذلك لمن يجعله صناعة ، مثل الأدباء، والمؤدِّبين، والمعلمين من النحويين، ويحتاج فى الاستعانة على تعلم اللغة إلى رواية أشعار العرب، وأيامها، وأخبارها، والصواب فى تدبير ذلك: أن تروى له ،ويعلم، ويحفظ الأشعار الحكمية التى ضمت الحكمة، والتوحيد، والدين، والبعث على العلم، والزهد، والشجاعة، والجود، ومكارم الأخلاق؛ لينشأ على معرفة الفضائل، ومحبة نيل المدائح نشوءاً، ويعتادها عادة، فيجتمع له فى ذلك فائدة الفصاحة، والبيان، ومعرفة المبتذل من

الكلام، وكثير من الغريب، والوقوف على المعانى الفاضلة[1].

والأم مطالبة بتعليم أطفالها اللغة والنحو، كما أن الأب مطالب بذلك، بل لها كبير الأثر لأنها التى تعايش طفلها أكثر من والده:

روى مسلم فى صحيحه عن بن أبى عتيق (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر) قال: تحدثت أنا والقاسم (بن محمد بن أبى بكر) عن عائشة-رضى الله عنها- حديثاً؛ وكان القاسم رجُلاً لحّانةً، وكان لأم ولدٍ (أى أمه أمة) فقالت له عائشة-رضى الله عنها: ما لك لا تُحدّثُ كما يتحدثُ ابنُ أخى هذا؟! أما إنى قد علمتُ من أين أُوتيتَ، هذا أدّبتْهُ أُمهُ، وأنتَ أدبتكَ أُمُّكَ، قال: فغضبَ القاسم؛ وأضَبَّ عليها(أى حقد) .... الحديث.

فلم تنسب عائشة-رضى الله عنها-لحن الابن إلى والده، وإنما نسبته إلى أمه لأنها تؤثر تأثيراً كبيراً فى الطفل، وخاصة فى مرحلة طفولته.

الأساس العلمى الخامس: إتقان الطفل اللغة الأجنبية:

وبعد أن يتقن الطفل اللغة العربية بشكل جيد، ويحفظ شيئاً من القرآن والحديث، فلا بأس بإتقان لغة أجنبية سائدة، وذلك لتكوين جيل مسلم يستطيع كشف خطط الأعداء، ويأمن مكرهم، وينقل العلوم المادية البحتة إلى المسلمين، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ أول ما وصل المدينة المنورة مهاجراً من مكة: فقد روى أبو يعلى وابن عساكر عن زيد بن ثابت ﷺ قال: أتى بى النبى ﷺ مقدمة المدينة، «فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بنى النجار، وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك، قال: « يا زيد تعلَّم لى كتاب يهود، فإنى والله ما آمن يهودًا على كتابى»، فتعلمته فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته،فكنت أكتب لرسول الله إذا كتب، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه[2]. وعندهما

(١)نصيحة الملوك(ص ١٦٨).

(٢) رواه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه وأحمد والفاكهي. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم(١٨٧).

أيضاً وابن أبى داود عن زيد قال لى رسول الله ﷺ : «أتحسن السريانية ؟! فإنها تأتينى كتب» قلت: لا، قال:«فتعلمها»[1] فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً.

وعلى هذا سار السلف فى تعليمهم للأطفال، بالإضافة إلى اللغة العربية لغة أجنبية أخرى:

روى الحاكم فى«مستدركه»،وأبو نعيم فى «الحلية» عن عمر بن قيس قال:كان لابن الزبير ﷺ مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة أخرى، فكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته، وكنت إذا نظرت إليه فى أمر دنياه قلت: هذا الرجل لم يرد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه فى أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين.

الأساس العلمى السادس:توجيه الطفل وفق ميوله العلمية:

تقدّم قبل قليل تعلم زيد بن ثابت للغة السريانية، وقد اختاره الصحابة، وقدّموه للنبى ﷺ ، ورشحوه له لعلمهم بقدراته، وميوله اللغوية، واستطاعته تنفيذ رغبة رسول الله ﷺ فى تعلم السريانية، وهذا دليلٌ على توجيه الطفل حسب ميوله العلمية ، ورغباته النفسية؛ لأنه أدعى لتمكن العلم من نفسه، وبراعته به، وتفوقه على أقرانه، وقد قرر هذا أيضاً علماء السلف رضوان الله عليهم، فهذا ابن سينا يرى أنه : ليست كل صناعة-مهنة- يرومها الصبى ممكنة له، مواتية، ولكن ينبغى له أن يزاول ما شاكل طبعه، وناسبه.

وروى أن يونس بن حبيب كان يتردَّد على الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ ليتعلم منه العروض والشعر، فصعب ذلك عليه، فقال له الخليل يوماً: من أى بحر قول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيع

ولما عجز يونس بن حبيب عن الإجابة، طالبه الخليل بن أحمد بتنفيذ الشطرة الثانية من بيت الشعر محل السؤال.

(١) ورواه أحمد والحاكم، انظر :سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (١٨٧) .

وكان الإمام البخارى فى أول أمره يحاول تعلم الفقه، والتبحر فيه، فقال له محمد بن الحسن: اذهب واشتغل بعلم الحديث، عندما رآه مناسباً لقدراته، وأليق به، وأقرب إليه، وقد أطاع البخاري، ومن ثم صار على رأس أهل الحديث، بل وإمامهم[1].

وهذا عمر بن عبد العزيز يُحدثنا عن نفسه التوّاقَه الطموحة، منذ طفولته، وكيف يحقق آماله وميوله ورغباته بعزيمة وقوة إرادة.

روى ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال(٢/ ٦٥١)عن مزاحم قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: إنى قد رأيتُ فى أهلكَ خَللاً! فقال: يا مُزاحِمُ أما تكفيهم أُعْطيتُهمُ، وما يصيبون من المقاسم مع المسلمين من فيئهم مع مال عمر؟ فقلت له: وأين يقع ذلك منهم؟ مع ما يرونَ، ومع ضيافتهم، وكسوة نسائهم، وقد ـ والله ـ خشيت أن تصيبهم مخمصةٌ؟! فقال عمر: إن فى أنفسنا توقداً، لقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان:ثم تاقت نفسى إلى السلطان، فاستعملت على المدينة.

ثم تاقت وأنا فى السلطان إلى النساء،والعيش الطيب، فما علمتُ بالمدينة أحداً من أهل بيتي، ولا غيرهم، كانوا على مثل ما كنت فيه.

ثم تاقت نفسى إلى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو ما تاقت إليه نفسى من أمر آخرتي. فلستُ الذى أهلكُ آخرتى بدنياهم.

هكذا تتكون النفس الطموحة منذ الطفولة، تنشأ مع الإنسان فتجعله حركياً فى كل ما يصبو إليه، فيحقق آماله فى عالم الواقع.

الأساس العلمى السابع: المكتبة المنزلية الصالحة، وأثرها فى بناء الطفل:

حتى يتعلم الطفل القرآن والحديث واللغة، فلا بُدَّ من احتواء البيت على مكتبة إسلامية علمية يشبُّ عليها، وينهلُ منها.

---

(١) عن مجلة الوعى العربي، سنة أولى، عدد (١) عام(١٣٥٧هـ/ ١٩٧٧م)ص(٣٣).

عن عبد الله بن سلمة، عن أبيه سلمة قال: دفع إلى أبى بـديل بـن ورقـاء كتابـاً فقال: يا بنى ، هذا كتاب رسول الله ﷺ ، فاستوصـوا بـه، فلـن تزالـوا بخـير مـا دام فيكم... فذكر الحديث، وفيه: أن الكتاب بخط على بن أبى طالب ﷺ[1] .

وكان سمرة بن جندب ﷺ قد جمع أحاديث كثيرة فى نسخة ورثها ابنـه سـليمان، ورواها عنه، وهى على ما يظن الرسالة التى بعثها سمرة إلى بنيه علم كثير[2] .

وهذا يشير إلى أهمية احتواء المنزل مكتبة علمية نافعة لبنـاء الطفـل بنـاء علميـاً قوياً؛ لهذا قال الجاحظ:

متى كان الأديب بارعاً، وكانت مواريثه كتبًا بارعة، وآداباً جامعة، كـان الولـد أجدر أن يرى التعلم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه، ويرى تركه خطأ، وأجـدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجـدر أن يـسرى إليه عرق من نحله، وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب النظـر فى الكتب، والاختلاف فى سماع العلم، إلا قد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة[3] .

وسئل أبو عبد الله محمد بن إسـماعيل البخـارى صـاحب الـصحيح عـن دواء للحفظ؟ فقال -رحمه الله: إدمان النظر فى الكتب[4] .

وأسند الإمام ابن عبد البرّ[5] إلى الإمام أبى جعفر الطحاوى قال: حـدثنا أحمـد ابن عمران قال: كنتُ عند أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وقد تخلف فى منزله، فبعث غلاماً من غلمانه إلى أبى عبد الله بـن الأعرابـى -صـاحب الغريـب- يـسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك.

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر، ترجمة: بديل بن ورقاء.
(٢) تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر (٤/ ٣٢٦) رقم (٤٠٢)
(٣) كتاب الحيوان للجاحظ، طبع سلسلة المختار من التراث العربي، رقم (١١/ ٣٦٤) .
(٤) جامع العلم وفضله لابن عبد البرّ (٢/ ٢٠٤) .
(٥) المصدر السابق (٢/ ٢٠٢) .

فقال لي: عندى قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أَرَبى معهم، أتيت، قال الغلام: وما رأيت عنده أحداً، إلا أن بين يديه كتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب:يا أبا عبد الله، سبحان الله العظيم! تخلفت عنا، وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لى الغلام: إنه ما رأى عندك أحداً، وقلتَ أنت مع قوم من الأعراب ؟ فإذا قضيت أربى معهم أتيتُ؟ فقال ابن الأعرابي:

لنا جلساءُ ما نَمَلُّ حديثَهم ... ألباءُ مأمونون غيباً ومَشْهَدا
يفيدوننا من علمهم؛ علمَ ما مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسَدَّدَا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عِشْرَة ... ولا نتّقى منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت : أمواتٌ، فما أنت كاذباً ... وإن قلتَ أحياءٌ فلست مُفَنَّدا

وأسند الخطيب البغدادى إلى نافع عن ابن عمر -رضى الله عنهما: «أنه كان لا يخرج كل غداة حتى ينظر فى كتبه»[1] وأسند إلى الحسن أنه قال: إن لنا كُتباً نتعاهدها[2].

وقد نبّه لدورالمكتبة المنزلية الإمام الشهيد فى رسالته: أنجع الوسائل فى تربية النشء تربية إسلامية خالصة، فقال:

وأذكر كذلك ضرورة احتواء المنزل على مكتبة مهما كانت يسيرة، إلا أن كتبها تُختار من كتب التاريخ الإسلامي، وتراجم السلف، وكتب الأخلاق، والحكم، والرحلات الإسلامية، والفتوح، ونحوها،ولئن كانت صيدلية المنزل ضرورية لدواء الأجسام، فالمكتبة الإسلامية ضرورية لإصلاح العقول، وأن يحول الأبوان دون تسرب الكتب الهازلة، والصحف الماجنة إلى ابنهما لا بالمنع والتهديد، فإن ذلك مما يزيد شغفه بها، وإقباله عليها، ولكن بصرفه إلى كتب نافعة مغرية، وإثارة الميل فيه إلى هذه الناحية الصالحة.

---

(١) الجامع فى الحث على حفظ العلم (ص :٢٠١).
(٢)المصدر السابق نفسه .

الأساس العلمى الثامن: رواية طفولة علماء السلف الصالح فى طلب العلم أمام الأطفال:

نظراً لما تلعب القصة فى شدِّ انتباه الطفل، وتحريك مشاعره،وإثارة اليقظة الفكرية فى عقله،وحيث إن أسلوب القصة كانت إحدى الوسائل النبوية فى تربية الأطفال، والتى سنأتى على ذكرها فى الفصل الخامس إن شاء الله، وأحد الأركان القوية فى شحذ هممهم،وتطلعهم نحو مستقبل علمى متقدم؛ لهذا نقدم بين يديك هذه النماذج لتكون النواة التى تنطلق منها فى توجيه الأطفال، واستنهاض هممهم.

وقد تقدم معنا طفولات عجيبة فى حفظ القرآن والحديث، وروينا حادثة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وطلبه للعلم، ونزيد على ذلك القصص التالية:

١ـ طفولة الإمام سفيان بن عيينة فى طلبه للعلم-رحمه الله تعالى :

ذكر الخطيب البغدادى عن أحمد بن نضر الهلالى قال: سمعت أبى يقول: كنت فى مجلس سفيان بن عيينة، فنظر إلى صبى دخل المسجد، فكأن أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنه، فقال سفيان: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ثم قال:يا نضر، لو رأيتنى ولى عشر سنين طولى خمسة أشبار، ووجهى كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابى صغار، وأكمامى قصار، وذيلى بمقدار، ونعلى كآذان الفار، اختلفت إلى علماء الأمصار، مثل الزهرى وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتى كالجوزة، ومقلمتى كالموزة، وقلمى كاللوزة،فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير.

قال:ثم تبسم ابن عيينة، وضحك، قال أحمد:فتبسم أبي، وضحك[1] .

٢ـ طفولة الإمام مالك بن أنس ﷺ :

قال مطرف: قال مالك: قلت لأمي:أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال، فالبس ثياب العلم، فألبستنى مسمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعمَّمتنى

(١) الكفاية فى علم الرواية(ص ١٢٢) .

فوقها،ثم قالت: اذهب فاكتب الآن .

وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه[1] .

قال ابن وَهب: حدثنى مالك، قال: كنتُ آتى نافعاً، وأنا غلام، حديثُ السن، فيحدثني، وكان يجلس بعد الصبح فى المسجد لايكاد يأتيه أحد[2] .

٣ـ طفولة الإمام الشافعى ﷺ وطلبه للعلم:

قال ﷺ :لم يكن لى مال، وكنتُ أطلب العلم فى الحداثة-أي: فى مستهل عمره- وكانت سنه من ثلاث عشرة سنة- وكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور-أى: ظهور الأوراق المكتوب عليها- فأكتب فيها[3] .

وقال الشافعى أيضاً عن طلبه للعلم فى صغره رغم فقره:

«كنت وأنا فى الكتاب أسمع المعلم يُلقن الصبي، فأحفظُ ما يقول، ولم يكن عند أمى ما تعطى المعلم، وكنت يتيماً، فكان المعلم يرضى منى بأن أخلُفَهُ إذا قام، ولقد كانوا يكتبون، وقبل أن يفرغ المعلم من الإملاء أكونَ حفظتُ جميع ما كتبتُ، فقال لى ذات يوم: ما يَحِلُّ لى أن آخذ منك.

ثم لما خرجت من الكُتَّاب، كنت ألتقِطُ الخَزَفَ، وكَرَبَ النخل، وأكتاف الجمال، فأكتب فيها الحديث، وأجيء إلى الدواوين، فأستوهبُ الظهور،وأكتبُ فيها، حتى ملأت حِبَاباً كانت لأمى من ذلك»[4] .

فحب العلم يصنع المعجزات، ولا يقف الفقر عائقاً أمامه، فالرغبة الجامحة، والإخلاص لله تعالى فى الطلب، طريق النجاح.

---

(١) مقدمة كتاب: (الديباج المذهب) لابن فرحون.

(٢) التعليق الممجد على موطأ محمد لأبى الحسنات عبد الحى اللكنوى (١/ ٢٣٩) وعزاه لتذكرة الحفاظ للذهبى فى سيرة نافع.

(٣) عن صفحات من صبر العلماء للشيخ عبد الفتاح أبى غدة رحمه الله تعالى .

(٤) عن صفحات من صبر العلماء للشيخ عبد الفتاح أبى غدة ـ رحمه الله تعالى ـ (ص ١٧٣ ط ٤) .

وحكى البويطى عن الشافعي-رحمه الله-أنه كان فى مجلس مالك بن أنس-رحمه الله- وهو غلام، فجاء رجل إلى مالك، فاستفتاه، فقال: إنى حلفتُ بالطلاق الثلاث أن هذا البلبل لا يهدأ من الصباح، فقال له مالك: قد حنثت، فمضى الرجل، فالتفت الشافعي-رحمه الله- إلى بعض أصحاب مالك فقال: إن هذه الفتيا خطأ، فأخبروا مالكًا بذلك، وكان مالك مهيب المجلس، لا يجسرُ أحدٌ أن يردَّه، وربما جاء صاحب الشرطة،فوقف على رأسه إذا جلس فى مجلسه، فقالوا لمالك: إن هذا الغلام يزعمُ أن هذه الفتيا إغفال وخطأ، فقال له مالك: من أين قلت هذا؟ فقال الشافعي: ألست أنت الذى رويت لنا عن النبى ﷺ فى قصة فاطمة بنت قيس ـ رضى الله عنها ـ قالت للنبى ﷺ : إن أبا جهم، ومعاوية خطباني، فقال ﷺ:«أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له». فهل كانت عصا أبى جهم دائماً على عاتقه؟! وإنما أراد من ذلك الأغلب، فعرف مالك محل الشافعى ومقداره، قال الشافعي: فلما أردت أن أخرج من المدينة جئتُ إلى مالك، فودعته، فقال لى مالك حين فارقته: يا غلام، اتقِ الله تعالى، ولا تطفئ هذا النور الذى أعطاك الله بالمعاصي، يعنى بالنور: العلم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] هكذا فى هذه الرواية: البلبل، وفى رواية أخرى: القُمّرى: الحمامة[1].

٤ـ طفولة الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه:

حفظ أحمد بن حنبل القرآن فى صباه، وتعلم القراءة والكتابة، ثم اتجه إلى الديوان، يمر على التحرير، ويقول فى نفسه: كنت وأنا غُليّم أختلف إلى الكتّاب، ثم أختلف إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة.

وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد،حتى قال بعض الأدباء: وأنا أنفق على ولدي، وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى(١/ ١٥٦) .

غلام يتيم، انظروا كيف؟! وجعل يعجب من أدبه، وحُسْن طريقه[1] .

٥ـ طفولة الإمام أبى يوسف صاحب أبى حنيفة ﷺ :

قال أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ، رثّ الحال، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة، فانصرفت معه فقال: يا بني، لا تمدن رجلك مع أبى حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبى، فتفقدنى أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلتُ أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري، قال لي: ما شغلك عنا: قلت: الشغل بالمعاش، وطاعة والدى، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلىَّ صرة، وقال: استمتع بهذه، فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لى: الزم الحلقة، وإذا نفدت هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمته بخلّة قط، وما أخبرته بنفاد شيء ما، وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت، وتموّلت.

وهناك رواية ثانية فى نشأة الإمام أبى يوسف:

قال على بن الجعد:أخبرنى أبو يوسف، قال: توفى أبى إبراهيم بن حبيب، وخلفنى صغيراً فى حجر أمي، فأسلمتنى إلى قصّار أخدمه، فكنت أدع القصّار، وأمر إلى حلقة أبى حنيفة، فأجلس أستمع، فكانت أمى تجيء خلفى إلى الحلقة، فتأخذ بيدى، وتذهب بى إلى القصار،وكان أبو حنيفة يُعنى بى لما يرى من حضوري، وحرصى على التعلم،فلما كثر ذلك على أمي، وطال عليها هربي،قالت لأبى حنيفة: ما لهذا الصبى فساد غيرك، هذا صبى يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلى ، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مُرِّى يا رعناء! هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه، وقالت له: أنت شيخ قد خرفت، وذهب عقلك.

---

(١) رجال الفكر والدعوة لأبى الحسن الندوى (ص ١٠٥).

قال أبو يوسف: ثم لزمت أبا حنيفة، وكان يتعاهدني بماله، فما ترك لي خَلَّه، فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلَّدت القضاء، وكنت أجالس هارون الرشيد، وآكل معه على مائدته.

فلما كان في بعض الأيام قدم إليَّ هارون الرشيد فالوذجا،فقال لي هارون: يا يعقوب، كُلْ منه، فليس يعمل لنا مثله كل يوم، فقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا فالوذج بدهن الفستق، فضحكت، فقال لي: مما ضحكت؟فقلت: خيراً أبقى الله أمير المؤمنين، قال: لَتخبرني، وألحَّ عليَّ، فأخبرته بالقصَّة من أولها إلى آخرها فعجب من ذلك وقال:لعمري إن العلم ليرفع وينفع ديناً ودنيا، وترحم على أبي حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه[1].

٦ـ طفولة الإمام محمد بن الحسن الشيباني في طلب العلم-رحمه الله تعالى:

روى الخطيب بسنده إلى مجاشع بن يوسف قال: كنت في المدينة عند مالك،وهو يفتي الناس، فدخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وهو حَدَثٌ، وذلك قبل أن يرحل إليه لسماع الموطأ منه، قال محمد: ماذا تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك:لا يدخل الجنب المسجد، قال محمد: فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد، فلما أكثر عليه، قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم، ويدخل، فيأخذ الماء من المسجد، ويخرج، ويغتسل ، قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه-وجعل يشير إلى الأرض- ثم نهض، قالوا: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فقال مالك: محمد بن الحسن كيف يكذب؟ وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟! قالوا: إنما قال: من أهل هذه وأشار إلى الأرض، قال: هذا أشد عليّ من ذاك[2].

---

(١) صفحات من صبر العلماء .

(٢) بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للشيخ زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ (ص ١٢) .

٧ـ طفولة الإمام ابن الجوزى -رحمه الله- فى طلب العلم:

قال الإمام ابن الجوزى عن الشدائد التى نالته فى بدء طلبه للعلم ، وعن محامد صبره على تلك الشدائد:ولقد كنت فى حلاوة طلبى للعلم ألقى من الشدائد ما هو أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب، وأرجو، كنت فى زمن الصبا آخذ معى أرغفة يابسة،فأخرج فى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسي-فى بغداد- فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندى أنى عرفت بكثرة سماعى لحديث الرسول ﷺ وأحواله، وآدابه، وأحوال الصحابة، وتابعيهم.

وقال أيضا:لم أقنع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة،ولم أترك أحداً ممن يروى، ويَعِظ،ولا غريباً يقدم إلا وأحضره، وأتخير الفضائل، وقد كنت أدورُ على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نفسى من العدو لئلا أُسبَق، وكنت أصبح وليس لى مأكل، وأمسى وليس لى مأكل، ما أذلَّنى الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالى لطال الشرح[1] .

ومما قاله أيضاً عن نفسه فى كتابه«صيد الخاطر» :

«من أنفق عَصْرَ الشباب فى العلم، فإنه فى زمن الشيخوخة يَحْمَدُ جَنْى ما غَرَس، ويلتذُّ بتصنيف ما جَمَع، ولا يرى ما يَفقِدُ من لذَّاتِ البدن شيئاً، بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم،هذا مع وجود لذاته فى الطلب،الذى كان تأمل به إدراكَ المطلوب، وربما كانت تلك الأعمالُ، أطيب مما نِيلَ منها، كما قال الشاعر:

أهتزُّ عند تمنّى وَصْلِها طَرَباً ورُبَّ أُمْنية أحلى من الظَّفَرِ

ولقد تأملت نفسى، بالإضافة إلى عشيرتى، الذين أنفقوا أعمارهم، فى اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة - الشباب -فى طلب العلم ،فرأيتنى لم يَفُتْنى مما نالوه إلا ما لو حصل لى ندِمتُ عليه، ثم تأملتُ حالي، فإذا عيشى فى الدنيا أجود من

(١) صفحات من صبر العلماء(ص٧٦ ط٢) .

عيشهم، وجاهى بين الناس أعلى من جاههم، وما نِلتُه من معرفة العلم لا يُقوَّم.

فقال لى إبليس: ونَسِيتَ تَعَبَك وسَهَرَك؟! فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدى لا وقع له-أى لا يذكر وليس بشىء - عند رؤية يوسف، وما طالتْ طريق أدَّت إلى صديق:

جـزى اللهُ المـسِيرَ إليـه خـيراً وإن تَـرَكَ المَطَايـا كـالمزاد[1]

بل طلب العلم من أعظم القربات عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة، حتى قال الإمام الغزالى -رحمة الله - فى كتابه النفيس« إحياء علوم الدين» :

«إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردت الدنيا والآخرة فعليك بالعلم».

ويقول أحد العلماء:«طلبنا هذا العلم للدنيا، فأبى الله إلا أن يجعله للآخرة» وهكذا فإن العلم ينور القلب والعقل، ويرشد الأمة ويحييها،ويبصر الحاكم إدارة البلاد والعباد، فالعلم خير كله. وفقنى الله وإياك إلى طلب العلم وخدمته.

روى ابن عبد البر بسنده عن مالك بن أنس قال: سمعت زيد بن أرقم ﷺ يقول فى هذه الآية: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام] قال:«بالعلم يرفع الله عز وجل من يشاء فى الدنيا»[2] .

٨-طفولة الإمام ابن سينا -رحمه الله- فى طلب العلم:

لما بلغ عشر سنين من عمره كان قد أتقن القرآن العزيز، والأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب، والجبر، والمقابلة، ثم أحكم علم المنطق، وإقليدس، والمِجَسطي، وفاق شيخه (الحكيم أبا عبد الله الناتلي)أضعافاً كثيرة، وكان مع ذلك يختلف فى الفقه إلى إسماعيل الزاهد، واشتغل بتحصيل العلم: الطبيعى، والإلهى، وفتح الله عليه أبواب العلوم،ثم رغب بعد ذلك فى علم الطب، وتأمل الكتب

(١) صفحات من صبر العلماء (ص٩٥ ط ٣) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله(١/ ١٦٠) .

المصنفة فيه، وعالج تأدّباً ـ أى :تعلماً وتعليماً ـ لا تكسباً، وعلم الطب حتى فاق فيه الأوائل والأواخر فى أقل مدة، وأصبح فيه عديم النظير، فقيد المثيل، واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعه، والمعالجات المقتبسة من التجربة، وسِنّه آنذاك نحو ست عشرة سنة، وفى مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضأ، وقصد المسجد الجامع، وصلى، ودعا الله عزّ وجلّ أن يسهلها عليه، ويفتح مغلقها له، وكان نادرة عصره فى علمه، وذكائه، وتصانيفه، وصنف ما يقارب مائة مصنف ما بين مطول، ومختصر، ورسالة فى فنون شتى ـ رحمه الله تعالى ـ [1].

٩ـ كيف اختار أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ علم الفقه؟

روى الخطيب فى تاريخ بغداد (١٣/ ٣٣١) عن أبى يوسُف قال: قال أبوحنيفة-رحمه الله:لما أردت طلب العلم جعلتُ أتخيرُ العلومَ، وأسأل عن عواقبها:

فقيل لى: تعلم القرآن، فقلت: إذا تعلمت القرآن وحفظتُه فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس فى المسجد، ويقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك، أو يساويك فى الحفظ، فتذهب رئاستك.

قلت: فإن تعلمت الحديث الشريف، وسمعتُه، وكتبتُه،حتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى؟قالوا: إذا كبُرتَ، وضعفتَ حدَّثْتَ، واجتمع عليك الأحداث والصبيان، ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب، فيصير عاراً عليك فى عقبك، قلت: لا حاجة لى فى هذا.

فقلت: أتعلّم النحو، فقلت: فإن تعلمتُ النحوَ والعربيةَ ما يكون آخر أمرى؟

قالوا: تقعدُ معلماً، فأكثر رِزْقكَ ديناران إلى الثلاثة. فقلت: وهذا لا عاقبة له.

ثم قلت: فإذا نظرت فى الشعر؟ حتى لم يكن أحدُ أشعر منى؟ ما يكونُ آخر

(١) المصدر السابق (ص ٤٣).

أمرى؟ قالوا: تمدح هذا فَيَهَبُ لكَ، أو يحملكَ على دابة، أو يخلع عليك خلعة، أو تترفع عن قبول الجوائز، فيكون ذلك وسيلة لاجتماعك بالأكابر، وتِرْدادكَ عليهم، وتعرفكَ بهم، وشفاعتكَ عندهم. كذَا أن توصفَ بالبلاغة والعفة، ولا تأمن إن كنتَ طالباً للترفّد (العطاء)، وحُرمتَ من ممدوحك: هجوته، فرفضك من عينه، وطَردك عن مجلسه، فقلت: لاحاجة لى فى هذا العلم.

لكن إن نظرتُ فى الكلام ما يكون آخري؟ قالوا: لا يسلم من نظر فى الكلام من مشنعات الكلام، فيرمى بالزندقة، فإما أن يُؤخذ فيُقْتل، وإما أن يسلمَ فيكون ملوماً مذموماً.

قلتُ:فإن تعلمت الفقه؟ قالوا: تُسألُ؛ وتُفتى الناس، وتطلب للقضاء والمناصب، حتى وإن كنت شاباً.

فقلت: «ليس فى العلوم شيءٌ أنفع من هذا، فلزمتُ الفقهاء، وتعلمتُ الفقه، وتركتُ ما سواه من ذلك»[1].

فانظر إلى عبقرية هذا الإمام كيف ينظر إلى غاية العلوم للتبحر فيها، ولا يقف عند وسائلها، فالفقه هو نهاية علوم القرآن والحديث واللغة والسيرة النبوية، وعليه مدار الأحكام، ومن لا يتقن الوسائل لا يستطيع أن يُبدع فى الغايات،وخاصة عند تقعيد أصول الفقه وقواعده وأسسه.

ولم يقصد الإمام غايته الدنيوية، فقد كان أزهد الناس وأورعهم، وكان يصرف من ماله الخاص على تلامذته.

وهكذا يكون بث طريقة التفكير فى تعليم الطفل، أن ينظر فى المال والغاية، وأن يكثر من سؤال: ثم ماذا؟ وأن يُوجَّه لمعرفة نهاية الأمور، وليس أوائلها وأوسطها.

---

(١) انظر: تبييض الصحيفة بمناقب الإمام أبى حنيفة -رحمه الله- للإمام السيوطى، تحقيق: عبد الرحيم غالب الكحالة .

وندرة الفقهاء وقلتهم دليل نفاسة ذلك العلم، فلقد كان من صحابة رسول الله ﷺ محدثون كثر، ومقرئون كثر، لكنْ فقهاؤهم كانوا قلة قليلة، ولذلك قدم الحنفية رواية الفقيه على غير الفقيه عند التعارض، وهذا من نفائس الترجيح.

وإن رسول الله ﷺ قد بين درجة الفقيه من درجة الحافظ، فأوصى الحافظ بالتبليغ حتى يصل إلى الفقيه فقال: « بلغوا عنى ولو آية، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وبذلك حصل الأجر للاثنين، وفاق الفقيه الحافظ بالاستنباط، فإن كان الفقيه حافظاً مثل الأئمة الفقهاء الأربعة المجتهدين كانوا أئمة يقتدى بهم فى فتواهم.

ومن نفائس أجوبة أبى حنيفة-رحمه الله تعالى- فى صغره ما ذكره ابن نُجيم الفقيه الحنفى فى كتابه البديع: «الأشباه والنظائر»[1] القصة التالية:

حكى الخطيب الخوارزمى أن كلب الروم أرسل إلى الخليفة مالاً جزيلاً على يد رسوله، وأمره أن يسأل العلماء عن ثلاث مسائل، فإنْ هُم أجابوك أُبذل لهم المالَ، وإن لم يجيبوك فاطلب من المسلمين الخراج.

فسأل العلماء، فلم يأت أحد بما فيه مقنع، وكان الإمام إذ ذاك صبياً حاضراً مع أبيه، فاستأذنه فى جواب الرومى فلم يأذن له(أى خشية عليه من عدم صحة الإجابة) فقام واستأذن من الخليفة فأذِن له، وكان الرومى على المنبر،فقال له أسألٌ أنت؟ قال: نعم، قال: انزل، مكانك الأرض ، ومكانى المنبر،فنزل الرومى وصعد أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: سل.

ـ فقال(الرومى): أى شيء كان قبل الله تعالى؟

ـ قال (أبو حنيفة): هل تعرف العدد؟

ـ قال: نعم.

---

(١) انظر: غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، شرح أحمد بن محمد الحموى(٤/ ٣٠٨) طبع دار الكتب العلمية .

ـ قال: ما قبل الواحد؟

ـ قال: هو الأول ليس قبله شيء.

ـ قال (أبو حنيفة): إذا لم يكن قبل الواحد المجازى اللفظى شىء، فكيف يكون قبل الواحد الحقيقى ؟

ـ فقال(الرومى): فى أى جهة وجه الله تعالى؟

ـ قال(أبو حنيفة): إذا أوقدت السراج؛ فإلى أى وَجْهٍ نُورُه؟

ـ قال:فإن ذاك نور يستوى فيه الجهات الأربع.

ـ فقال (أبو حنيفة): إذا كان النور المجازىُّ المستفادُ الزائل لا وجه له إلى جهة، فنور خالق السموات والأرض الباقى الدائم المفيض كيف يكون له جهة؟

ـ قال (الرومى): بماذا يشتغل وجه الله تعالى؟

ـ قال (أبو حنيفة): إذا كان على المنبر مُشَبِّه مثلك أنزَلَهُ، وإذا كان على الأرض مُوحِّدٌ مثلى أَرْفَعَه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن].

فترك المال وعاد إلى الروم.

بمثل ذلك الذكاء النابه، والإيمان الكبير، استطاع أبو حنيفة-رحمه الله – أن يؤسس علم العقيدة فى بادئ أمره[1].

١٠-خاتمة: نموذج من أطفال الصحابة جمع بين العلم، والقرآن، والجهاد، وخدمة الرسول ﷺ:

روى الحاكم فى مستدركه(٣/ ٤٢١) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كانت وقعة بعاث وأنا ابن ست سنين، وكانت قبل هجرة رسول الله ﷺ بخمس سنين، فقدم رسول الله ﷺ وأنا ابن إحدى عشرة سنة، وأتى بى إلى رسول الله ﷺ فقالوا:غلام من الخزرج قد قرأت ست عشرة سورة[2]فلم أجز فى بدر ولا أُحُد، وأجزت فى الخندق.

(١)انظر: رسائل أبى حنيفة-رحمه الله تعالى- فى العقيدة الإسلامية، إعداد: محمد نور سويد .

(٢) وفى كنز العمال: قد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت على النبى ﷺ .

قال ابن عمر: وكان زيد بن ثابت يكتب الكتابين جميعاً، كتاب العربية، وكتاب العبرانية. وأول مشهد شهده زيد بن ثابت مع رسول الله ﷺ الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان فيمن ينقل التراب يومئذ مع المسلمين، فقال رسول الله ﷺ :« أما إنه نعم الغلام».

وغلبته عيناه يومئذ، فرقد، فجاء عمارة بن حزم، فأخذ سلاحه، وهو لا يشعر، فقال رسول الله ﷺ :«يا أبا رقاد نمت حتى ذهب سلاحك!» ثم قال رسول الله ﷺ: «من له علم بسلاح هذا الغلام؟» فقال عمارة بن حزم:أنا يا رسول الله أخذته، فردّه، فنهى رسول الله ﷺ أن يروع المؤمن، وأن يؤخذ متاعه لاعباً أو جادًا.

الأساس العلمى التاسع: حضور مجالس العلم والتلقى عن العلماء وكتابة ما يقولونه، ومناقشتهم بأدب واحترام:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة].

قال الإمام القرطبى فى التفسير: « هذه الآيه أصل فى وجوب طلب العلم لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة، والنبى ﷺ مقيم لا ينفر فلا يتركوه وحده». ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم(من كل فرقة منهم طائفة) وتبقى بقيتهم مع النبى ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سَمِعوا وعلِموا، وفى هذه إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل] فدخل فى هذا من لايعلم الكتاب والسنة.

وقال ابن عباس -رضى الله عنهما:أفضل الجهاد من بنى مسجداً يعلم فيه القرآن والفقه والسنة. وعن علىّ الأزدى قال:أردت الجهاد، فقال لى ابن عباس

رضى الله عنهما: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟! تأتى مسجداً فتقرأ فيه القرآن، وتعلم فيه الفقه. وقال الربيع: سمعت الشافعى يقول: «طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة». انتهى من تفسير القرطبى.

فإذا فرّغت كل عائلة مسلمة ولداً من أولادها لطلب العلم الشرعى، وذلك ليتفقَّه ويبلِّغ الأحكام الشرعية لعائلته، كانت تلك العائلة فى أعظم الخيرات والقربات فى دينها ودنياها. وعمَّ الخير كل المجتمع وأدَّى إلى صلاحه.

ومما أورده البغوى فى شرح السنة(١/ ٢٢٧): قال ابن عباس:﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران] أى: كونوا علماء فقهاء، وقيل: سُمى العُلماء ربانيين؛ لأنهم يَرُبُّون العلم، أي: يقومون به، يقال لكل من قام بإصلاح شىء وإتمامه: قد ربَّه، يَرُبُّهُ؛ فهو ربٌّ له، وقيل: سُمُّوا الربانيين، لأنهم يربُّون المتعلمين؛ لصغار العلوم قبل كبارها، وزيدت الألف والنون للمبالغة فى النسبة، وقيل: الربانيون: العلماء بالحلال والحرام. وقال البخاري: العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل:﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد] فبدأ بالعلم.

هذا حرص أطفال الصحابة على حضور مجلس رسول الله ﷺ، يغترفون من نور النبوة وبركاته،ويتعلمون منه، ويروون ذلك للناس:

روى البخارى عن أنس رضي الله عنه قال: بينما كنا جلوساً مع النبى ﷺ فى المسجد دخل رجلٌ على جملٍ، فأناخه فى المسجد، ثم عَقَله، ثم قال: أيكم محمدٌ؟ والنبى ﷺ متكئ بين ظهرانَيْهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبى ﷺ: «قد أَجَبتُك» فقال: إنى سائلك فَمُشَدِّد عليك فى المسألة، فلا تَجِدْ علىَّ فى نفسك، قال النبى ﷺ : « سل عما بدا لك»، فقال: أسألك بربِّكَ، وربِّ من قبلك:آلله أرْسلك إلى الناس كلِّهم؟ فقال النبى ﷺ : « اللهم نعم» قال:أَنْشدُك بالله،

آللهُ أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟، قال: «اللهم نعم» قال:أنشدُك بالله، آللهُ أمَرَكَ أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال:« اللهم نعم» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقْسِمَها على فقرائنا؟ فقال النبى ﷺ : « اللهم نعم» فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَنْ ورائى من قومى، وأنا ضِمامُ بنُ ثعلبة، أخو بنى سعد بن بَكْرٍ.

وعن أبى واقدٍ الليثى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : بينما هو جالسٌ فى المسجد؛ والناسُ معه، إذ أقبل ثلاثةُ نَفَرٍ، فأقبل اثنان إلى النبى ﷺ وذهب واحدٌ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهم فرأى فُرْجَةً فى الحلقة؛ فجلس فيها، وأما الآخر؛ فجلسَ خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فَرَغَ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض،فأعرض اللهُ عز وجل عنه»(١) رواه البخاري.

وعن محمود بنُ الربيع رضي الله عنه قال: «عَقَلْتُ من النبى ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فى وجهى، وأنا ابن خمس سنين من دَلْوٍ» رواه البخاري.

وإذا كان البيت بعيداً عن مكان الدرس،فإن صحابة رسول الله ﷺ ليتناوبون مع بعضهم البعض باهتمام وشغف وحب:

روى البخارى عن عمر رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيدٍ، وهى من عوالى المدينة، وكنا نَتَناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ ينزلُ يوماً، وأنزلُ يوماً، فإذا نزلتُ جئتُهُ بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نَزَلَ فعل مثل ذلك، فنزَلَ صاحبى الأنصارى يوم نَوْبَتِهِ، فضرب بابى ضرباً شديداً، فقال: أثَمَّ هُوَ؟! ففزعتُ فخرجتُ إليه، فقال: حدثَ أمرٌ عظيمٌ، فدخلتُ على حفصة، فإذا هى تبكي، فقلت: أطلقكُنَّ رسول الله ﷺ ؟ قالت: لا أدرى، ثم دخلتُ على النبى ﷺ

(١) انظر: جامع العلم وفضله(١/ ١٦٠).

فقلت-وأنا قائم: أَطَلَّقْتَ نساءَك؟ قال:« لا»، فقلتُ: الله أكبر![1].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مَرَّ بمجلسين فى مسجده، أحدُ المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويُعلمونه، قال: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويُعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضلُ، وإنما بُعثتُ مُعلماً ثم جلس فيهم. رواه البغوى بسنده، وقال محققه: أخرجه ابن ماجه، وقال صاحب الزوائد: إسناده ضعيف، وأخرجه أبو داود والدارمى.

فذهاب الطفل إلى مجالس العلم والفقه والذكر يتعلم فيها،هى أساس الانطلاق العلمى. حيث يشاهد الطفل المسلمين وأطفالهم يُصغون إلى المُدرس فيصغى، ويشاهدهم يسألون فيسأل، وهكذا يتعلم الطفل من مجالس الخير كل الخير، ويتأدب بآداب المجلس عملياً وواقعياً.

أسند البخارى فى الأدب المفرد عن عُبادة بن الوليد بن عُبادة بن الصامت ﷺ قال: خرجتُ أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار-قبل أن يهلكوا-فكان أول من لقينا أبا اليَسَر[2] صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له، وعلى أبى اليَسَر بُرْدةٌ[3] ومعافريّ[4]، وعلى غلامه بُرْدةٌ ومعافريّ، فقلت له: يا عمى لو أخذت بردة غلامك وأعطيته معافِرِيْكَ، أو أخذت معافِرِيْهِ؛ وأعطيته بردتَك، كانت عليك حلة، وعليه حلة، فمسح رأسه وقال: اللهم بارك فيه، يا بن أخى، بَصَرَ عيناىَ هاتان،

---

(١) قول عمر ﷺ من شدة فرحه بعدم طلاق ابنته من رسول الله ﷺ ، دليل على شدة الحال التى أخذت عمر ﷺ وحُقّ له التكبير والفرح لتبقى بنته زوجة للنبى ﷺ .

(٢) أبو اليَسَر :كعب بن عمرو،كان قصيراً ، أَسَرَ العباسَ يوم بدر، وهو الذى نزلت فيه الآية:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]راجع: الترمذى والنسائى والبَزار والطبرانى والطبري.

(٣) البُرْدة: شملة مخططة، وقيل: كساء مربع.

(٤) معافريّ: برد يمانى منسوب إلى قبيلة مَعَافر .

وسَمِعَ أُذناىَ هاتان، ووعاه قلبي-وأشار إلى نِياط قلبه- النبى ﷺ يقول:

« أطعموهم مما تَأكلون، واكسوهم مما تلبسون» وكان أن أُعْطِيَهُ من مَتاع الدنيا، أهونُ عَلَيَّ من أنى آخذ من حسناتى يوم القيامة»[1].

هكذا تحرك التابعى مع ابنه إلى طلب العلم، وازداد الابن قوةً نفسيةً، مما حمله على السؤال والاستفسار عما شاهده ولفت نظره، وجاءه الجواب من الصحابى بكل رأفة ورحمة، ودعاء، وبيان للدليل، ثم بيان البيان عن استنباط الصحابى للحديث الشريف، فضلاً عن التطبيق العملى على الوجه الأمثل، مما ساعد الصغير على حفظ الحديث النبوى علماً وعملاً اللهم وفقنا لذلك.

ومما يزيد من علم الطفل رواية الأب والأم لطفلهم ما تعلموه، إذ بالرواية يحيا العلم وينمو، فيغدو الطفل فى صغره وكبره محدثا للناس عن علوم والديه:

روى الإمام أحمد عن أبى سلمةَ بن عبد الرحمن قال: مَرَّ بى عبدُ الرحمن بنُ أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنهما ـ فقلتُ له: كيف سمعتَ أباكَ يقولُ فى المسجد الذى أُسِّسَ على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلتُ على رسول الله ﷺ فى بيتِ بعض نسائه، فقلتُ: يا رسول الله، أىُّ المَسْجِدَيْنِ الذى أُسِّسَ على التقوى؟ فأخَذَ كَفّاً من حصا، فضربَ به الأرضَ، قال«هو هذا، مسجد المدينة »، قال: فقلت له: أتشهدُ لَسَمِعْتَ أباكَ هكذا يَذْكُرُه. ورواه مسلم والترمذى والنسائى.

وسيأتى معنا فى البناء الاجتماعى للطفل (اصطحاب الطفل إلى مجالس الكبار) حديث عبد الله بن عمر، واصطحاب والده له إلى مجلس رسول الله ﷺ.

ومما يُرغب فى حضور مجالس العلم والذّكر،أنها مجالس تزيد من محبة الله تعالى للعبد، وتزيد من محبة المؤمنين لبعضهم، فينشأ الطفل فى ربوعها:

---

(١) انظر: فضل الله الصمد فى توضيح الأدب المفرد لفضل الله الجيلانى(١/ ٢٧٩) مع الحاشية، ثم قال:أخرجه مسلم بطوله فى آخر كتابه ، وابن ماجه فى الأحكام.

فعن أبى إدريس الخَوْلانى –رحمه الله تعالى– قال: دخلتُ مسجدَ دمشق، فإذا فتىً بَرَّاقُ الثنايا، وإذا الناسُ معه، فإذا اختلفوا فى شىء أَسْنَدوه إليه، وصَدَروا عن رأيه، فسألتُ عنه؟ فقيل: هذا معاذُ بنُ جَبَل ﷺ فلمّا كان من الغد هَجَّرتُ؛ فوجدتُه قد سبقنى بالتهجير، ووجدتُهُ يُصلى، فانتظرتُه حتى قضى صلاتَه،ثمَّ جئتُهُ من قِبل وجهه، فسلمتُ عليه، ثم قلت: والله إنى لأُحِبُّكَ، فقال: آلله؟ فقلتُ: أَلله، فقال: آلله؟ فقلت: ألله، فأخذنى بحَبْوةِ ردائى فجَبَذَنى إليه، فقال: أَبْشر، فإنى سمعت رسول اللهﷺ يقولُ: « قال الله تعالى: وجَبَتْ محبتى للمُتَحابِّين فِىَّ،و المتجالسين فى، والمتزاورين فِىَّ». قال النووى: فى «رياض الصالحين» : حديث صحيح رواه مالك فى « الموطأ» بإسناده الصحيح، قولهُ: هجَّرتُ: أى بَكَّرتُ، وهو بتشديد الجيم، قولُه: آلله، فقلت: ألله: الأول بهمزة ممدودة للاستفهام، والثانى: بلا مَدّ.

ومجالس العلم والذكر تحضرها الملائكة، وتحفها بأجنحتها، فتغذّى الأرواح والنفوس، ويجد الإنسان فيها تفاعلاً عجيباً، وخِفّةً فى النفس:

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :«وما اجتمع قومٌ فى بيتٍ من بيوتِ الله؛ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نَزَلتْ عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمةُ، وحفَّتهمُ الملائكةُ، وذكرهُمُ الله فيمن عِنْده» رواه مسلم.

وإن الشيطان ينفث كبره وغروره فى النفس الإنسانية، ويحثها على الشر ويدعوها إليه، وتثور وتغضب وتحقد وتحسد، وعلاج ذلك كله ذكر الله تعالى، وحضور مجالس ذكر الله التى تبحث عنها الملائكة، وتطوف فى الشوارع وتتجاذب نحوها.

فعن أبى هريرة ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ :« إن لله تعالى ملائكةً، يطُوفُون فى الطُّرُقِ، يلتمِسُون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تَنادَوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، فيُحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربُّهم–وهو أعلم: ما يقُول عبادى؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك،

فيقول: هل رأونى؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأونى؟ قال: يقولون: لو رأوْكَ كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثَر لك تسبيحاً، فيقولُ: فماذا يسألون؟ قال: يقولون:يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربِّ، ما رأوْها. قال: يقولُ: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظَم فيها رغبةً، قال: يقول: فممَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: يتعوّذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوْها؟ قال: يقولون: لا والله، ما رأوها، فيقولُ: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوْها كانوا أشد منها فِراراً، وأشدَّ لها مخافةً. قال: فيقول: «فأُشهدُكم أنى قد غفرتُ لهم». قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاء لحاجةٍ.قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهُم» متفق عليه.

فهل لك أيها الأب، وأيتها الأم ألا يشقى ولدكما فى حياته؟! وهل لكما أن تورِّثا ولدكما الصلاح؟! إنه فى مجالس الذِّكر، والتى هى بلا شك خير من مجالس اللهو التى انتشرت فى البلاد الإسلامية، وإن النفس إذا لم تتسابق إلى الطاعة فسوف تتسابق إلى المعصية، اللهم ألهمنا ذكرك ، ووفقنا لمجالس تحضرها وتحفها الملائكة، وأبعدنا عن مجالس الشياطين؛ ونجِّنا من مجالسة أهل السوء والنظر فى وجوههم.

روى ابن عبد البر عن عبد الرزاق وغيره عن معمر عن الزهرى قال:كان مجلس عمر مغتصاً من القراء شباباً وكهولاً، فربما استشارهم ويقول: لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن العلم ليس على حداثة السن وقِدَمه، ولكن الله يضعه حيث يشاء[1].

وقال عبد الله بن المعتز: « من أكثر مذاكرة العلماء، لم يَنس ما علم، واستفاد ما لم يعلم». ومما قاله مجدد علوم السنة فى عصرنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة- رحمه الله تعالى: « وإن التمكن من العلم لابدَّ له من: المتابعة، والدرس، والتبحر، والتدقيق،

(١) الجامع فى الحث على حفظ العلم(ص١٩٦) .

والانقطاع، مع صحة الفهم، وحُسن التلقى بالسماع والمجالسةِ للعلماء المشهود لهم بالعلم والتدقيق»[1].

بقى أن نتعرف إلى آداب مجالس العلم والذكر، التى تُزَيّن الكبير والصغير وتجمِّلهُ، وخيرُ ما وجدتُ الأرجوزة التى اختارها أحد الأئمة الأعلام ألا وهو أبو عمر يوسُف بن عبد البَرّ -رحمه الله- فى كتابه الرائع (جامع بيان العلم وفضله) (١/ ١٤٦):

واعلم بأن العلمَ بالتعلم ... والحفظ والإتقان والتفهم
والعلمُ قد يُرزقه الصغيرُ ... فى سنّه ويُحرم الكبير
فإنما المرء بأصغريه ... ليس برجليه ولا بيديه
لسانُه وقلبه المُرَكبْ ... فى صدره وذلك خَلْقٌ عَجَبْ
والعلمُ بالفهم والمذاكره ... والدرس والفكْرة والمناظره
فَرُبَّ إنسانٍ ينالُ الحِفْظَا ... ويُورد النصَّ ويحكى اللفظا
ورُبَّ ذى حِرْصٍ شديد الحبِّ ... للعلم والذكر بليد القلب
مُعْجزٌ فى الحفظ والروايه ... ليست له عما روى حكايه
وآخرُ يعطى بلا اجتهاد ... حفظاً لما قد جاء فى الإسناد
يهزّه بالقلب لا بالمناظره ... ليس بمضطرٍ إلى قَماطِره
فالتمس العلمَ وأجمِلْ فى الطَلَب ... والعلم لا يحسنُ إلا بالأدبْ
والأدب النافعُ حسن السّمتِ ... وفى كثيرِ القولِ بعضُ المَقْتِ
فكن لحسن الصمت ما حَييتا ... مُقَارفا تُحمد ما بقيتا
وإنْ بَدَتْ بين أُناسٍ مسأله ... معروفَة فى العلم أو مفتعله
فلا تكنْ إلى الجواب سابقاً ... حتى ترى غيرَك فيها ناطِقاً
فكم رأيت من عجول سابقْ ... من غير فَهْمٍ بالخطأ ناطقْ

(١) فى هامش تحقيقه لكتاب (ظفر الأمانى بشرح مختصر السيد الشريف الجرجانى) (ص٧١٤).

أزرى بـــه ذلـــك فى المجـــالس ... عنـد ذوى الألبـاب والتنـافس
والـصمت فعـلا بـك حقـاً أَزْيـنُ ... إنْ لم يكـنْ عنـدك عِلْـمٌ مُـتْقَنُ
وقـــل إذا أعيـــاكَ ذاكَ الأمـــرْ ... مـــا لى بـــما تـــسألُ عنـــه خَـــبَرْ
فـذاكَ شـطر العلـمِ عنـد العلـما ... كـذاكَ مـا زالـت تقـولُ الحكـما
إيـاكَ والعُجْـبُ بفـضلِ رأيكـا ... واحذرْ جوابَ القولِ من خطَئِكا
كـم مـن جـوابٍ أعقـبَ الندامـهْ ... فـاغْتنم الـصمتَ مـع الـسلامَهْ
العلـــمُ بحـــرٌ منتهـــاهُ يَبْعُـــدُ ... لـيس لـه حـدٌّ إليـه يُقـصدُ
ولـيس كـلُّ ذى العلـم قـد حَوَيْتَـهْ ... أَجَـلْ ولا العُـشْرَ ولـو أَحْـصَيْتَهْ
ومـــا بقـــى عليـــكَ منـــه أكثـــرُ ... ممـــا علمـــتَ والجـــوادُ يعثُـــرُ
فكـــنْ لمـــا سَـــمِعْتَهُ مُـــسْتَفْهِمَا ... إن أنـــت لا تفهـــمُ منـــه الكلـــما
القـــولُ قـــولان فقـــولٌ تَعْقِلُـــهْ ... وآخـــرُ تَـــسْمعَهُ فَتَجْهَلُـــه
وكـــلُّ قـــولٍ فلـــه جـــوابُ ... يجمعُـــهُ الباطـــلُ والـــصوابُ
وللكـــــــلام أولٌ وآخـــــــرُ ... فافْهَمْهُمَا والـذهنُ منـك حـاضِرُ
لا تـــــدفع القـــــولَ ولا تَـــــرُدَّهْ ... حتـــى يُؤدِّيـــك إلى مـــا بَعْـــدَه
فـــــربما أعَيـــــا ذوى الفـــــضائل ... جـواب مـا يلقـى مـن المسائلْ
فَيُمْـسكوا بالـصمتَ عـن جوابـهْ ... عند اعـتراض الـشك فى صـوابه
ولـــو يكـــونُ القـــول فى القيـــاس ... مـن فـضة بيـضاء عنـد النـاس
إذاً لكان الصمتُ من خـير الـذهبْ ... فـافهمْ هـداكَ اللهُ آدابَ الطلـبْ

الأساس العلمى العاشر: إيقاظ عقل الطفل بالسؤال، وتفتيح ذهنه بقصص أذكياء الأطفال:

طرح السؤال أداة فعالة فى إيقاظ العقل البشرى عامة والطفل خاصة، وهو يحرك المشاعر والأعصاب، ويجهز العقل والذهن للتفكير أولا، ثم الحصول على

جواب، وطرح السؤال، أو إلقاء الدرس والمحاضرة بطريقة السؤال، أقوى تأثيراً على العقل، وأدعى لعدم شرود ذهن الطالب،والرسول ﷺ كان يستخدم السؤال بحضور الأطفال والكبار،وذلك لتنبيه الحاضرين، وتعريفهم بالشيء الجديد:

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبروني بشجرة، مثلها مثل المسلم، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحتّ ورقها» فوقع في نفسي النخلة، فكرهت أن أتكلم وثمّ أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما قال النبي ﷺ : « هي النخلة» ، فلما خرجت مع أبي قلت:يا أبتاه، وقع في نفسي النخلة، قال: ما منعكَ أن تقولها؟! لو كنتَ قلتها كان أحب إليّ من كذا وكذا، قال: ما منعني إلا أني لم أرك ولا أبا بكر تكلمتما، فكرهتُ، وفي رواية : فإذا أنا أصغر القوم، فسكتُّ.

قال ابن القيم-رحمه الله-في « زاد المعاد» (٤/ ٣٩٧) معلقاً على الحديث: « ففي هذا الحديث إلقاءُ العالم المسائل على أصحابه، وتمرينُهم، واختبارُ ما عندهم، وفيه: ضرب الأمثال والتشبيه، وفيه: ما كان عليه الصحابةُ من الحياء من إكبارهم، وإجلالهم، وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم، وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب، وفيه أن لا يُكره للولد أن يُجيبَ بما يَعْرِفُ بحضرة أبيه، وإن لم يعرفه الأب، وليس في ذلك إساءة أدب عليه، وفيه: ما تضمنه من تشبيه المسلم بالنخلة من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام».

ونقتطف من كتاب(الدراري في ذكر الذراري)[1] لابن العديم الحلبي(٦٦٠هـ)- رحمه الله- باب: (في ذكر كلام الصبيان وجوابهم)إذ فيه إثراء من الأجوبة السديدة للأطفال، وسوف نلاحظ فصاحة الصبيان اللغوية، والإفحام المسكت الأدبي، والجرأة النفسية في الجواب، حتى مع الحكام، ضمن إطار الاحترام والتوقير

(١) تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد، طبع ونشر دار السلام.

والأدب،الأمر الذى يدل على حسن التربية والرعاية من قبل الأسرة المسلمة لأطفالها:

١ـ مر عمر بن الخطاب ﷺ على صبيان يلعبون، فتفرقوا من هيبته ولم يبرح ابن الزبير، فقال له: ما لكَ لَمْ تبرحْ؟ فقال: ما الطريقُ ضيقةٌ فأوسعها لكَ، ولا لى ذنبٌ فأخاف.

٢ـ لما ولد للرشيد العباس من واسطة،، اشمأزت منه نفسُهُ؛ لغلبة السواد عليه، فتنبأ رجل فى زمن الرشيد فدعا به، فجعلَ يذكره بالله، وينهاه عن قوله، وهو مقيم على دعواه، وأولاد الرشيد مصطفون بين يديه، والعباسُ إذ ذاك لم يجاوز العشر، فلما رأى الرشيد لزوم الرجل ادعاء النبوة، أمر بتجريده وضربه، فلما أخذته السياطُ جعلَ يضطربُ اضطراباً شديداً، فالتفتَ إليه العباس فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف] فاستطار الرشيد لها فرحاً، وقال: ابنى والله حقاً، يقول الله تعالى:﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

٣ـ أُدْخِل الركاض وهو ابنُ أربع سنين؛ إلى الرشيد ليتعجب من فطنته، فقال له: ما تُحبُّ أن أهبَ لكَ؟ قال: جميل رأيك، حتى أفوز به فى الدنيا والآخرة، فأمر بدنانير ودراهم؛ فَصُبَّتْ بين يديه، فقال له: اختر الأحبَّ إليك؟. فقال:الأحبُّ إلى أمير المؤمنين؛ وهذا من هذين، وضرب يده إلى الدنانير، فضحِك الرشيدُ، وأمر بضمه إلى ولده، والإجراء عليه.

٤ـ قال علىّ بن محمد: مر فارس بغلام فقال: يا غلام، أين العمران؟ قال: اصعد الرَّابية[1] ، تُشرف عليهم، فصعد، فأشرف على مقبرةٍ، فقال: إن الغلام لجاهلٌ أو حكيمٌ، فرجع، فقال: سألتُك عن العمران، فدللتنى على مقبرة، فقال: إنى رأيت أهل الدنيا ينتقلون إلى تلك، ولم أر أحداً انتقل إلى هذه، ولو سألتنى عما

(١) الرّابيةُ: كلُّ ما ارتفع من الأرض.

بواريك، ودابتك،لدللتُك عليه.

٥ـ قال الإسكندر لابنه: يا بن الحجَّامة[١] ، فقال: أما هى(أى أمه) فقد أحسنت التخير، وأما أنتَ فلم تُحسن.

٦ـ وقال أعرابى لابنه: اسكت يا بن الأمة[٢] ، فقال: هى والله أعْذَر[٣] منك؛ لأنها لم ترضَ إلا حُراً.

٧ـ لما وَلىَ يحيى بنُ أكثم القضاء بالبصرة، وكان صبياً فاستصغروه، فقال بعضهم: كم سن القاضى أيده الله؟ فقال: سن عتاب بن أسيد لما ولاه رسول الله ﷺ.

٨ ـ عاتب أعرابىٌ ابنه، وذَكَّره حقّه، فقال: أَبَت، إن عظيم حقك علىّ؛ لا يطل صغير حقى عليك.

٩ـ دخل الرشيد دار وزيره، فقال لولد له صغير: أيما أحسن دارنا أو داركم؟ قال: دارنا، قال: لِمَ؟، قال: لأنك فيها.

١٠ـ قال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي: أرأيت يافتح أحسن من هذا الفص ـ لفص كان فى يده ـ، قال: نعم يا أمير المؤمنين، اليد التى هو فيها أحسن منه.

١١ـ دخل قومٌ على عمر بن عبد العزيز، فجعلَ فتى منهم يتكلم، فقال عمر: ليتكلم أكبرُكم، فقال الفتى: إن قريشاً لتجد فيها من هو أسن منك، قال: تكلم.

١٢ـ دخل الحسين بن الفضل على بعض الخلفاء، وعنده كثير من أهل العلم، فأحبَّ أن يتكلم، فَزَبَرَهُ، وقال: أصبىٌ يتكلم فى هذا المقام؟ فقال: إن كنتُ صبياً، فلست أصغر من هدهد سليمان، ولا أنت أكبرُ من سليمانَ حين قال له:

---

(١) الحجامة: (الحَجامةُ) حرفة من الحرف كانت فى القديم وهى عبارة عن إخراج الدم الفاسد من الجسم المريض، وأيضا (الحجَّام) بمعنى المصاص.

(٢) الأَمَة: ضد الحرة.

(٣) أعذَرَ: ذات عذْر.

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] ثم قال: ألا ترى أن الله فهَّم الحكمَ سليمان، ولو كان الأمر بالكِبَرِ لكان داود أولى.

١٣ـ عَرْبَدَ صبى هاشميٌّ على قوم، فأرادَ عمُّه أن يَسوؤه، فقال: يا عم، قد أسأتُ بهم؛ وليس معى عقلى، فلا تُسئ بى ومعك عقلكَ.

١٤ـ قال رجل لابنه: يا بن الزانية. فقال: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

١٥ـ ضَرِطَ[١] ابنٌ لعبدِ الملكِ بن مروانَ فى حِجْرِهِ، فقال له: قُمْ إلى الكنيفِ[٢]، قال: هو ذا، أنا فيه يا أبي!

١٦ـ قال عبدُ الرحمن بنُ حسانِ بن ثابتٍ لأبيه؛ وهو طفل: لَسَعَنى طائرٌ، كأنه مُلتف فى بردى حبرة[٣] (يعنى الزُّنْبور)[٤] فقال حسان: قد قال ابنى شعراً، ورب الكعبة.

١٧ـ كان سليمانُ بن وهبٍ يكتبُ؛ فدخلَ عليه أبوه، فقال: يا بنى! إنَّ على بنَ يحيى وعدنى بالأمس؛ أن يحضر عندى اليوم، فاكْتبْ وذكِّرْه، فكتب بديهة:

يا مَنْ فَدَتْ أنفسُنَا نَفْسَهُ ... موعدنا بالأمس لا تنسه

١٨ ـ قال الفراء: أنشدنى صبيٌّ من الأعراب أُرْجُوزَةً، فقلت: لمن هى؟ فقال: لى، فزَبَرْتُه، فأدخل رأسه فى فروته؛ ثم قال:

إنى وإن كنتُ صغيرَ السنِّ ... وكان فى العين نَبُو عَنِّى

فإنَّ شيطانى أميرُ الجنِّ ... يَذهبُ بى فى الشعر كُلَّ فَنَّ

---

(١) ضرط: (الضّراطُ): صوت معروف يخرج من دبر الإنسان.

(٢) الكنيف: الساتر، كناية عن موضع قضاء الحاجة.

(٣) بردى حبرة: (الحبرة): ضربٌ من بُرُد اليمن.

(٤) الزُّنبورُ: ضربٌ من الذباب لسّاعٌ.

١٩ - عن على بن الجهم قال: وجد[١] على أبى، فأمر المعلم أن يحصرنى، فكتبتُ إلى أمى:

أمى جعلتُ فداكِ من أمٍّ ... أَشْكُو إليكِ فَظَاظَةَ[٢] الجَهْمِ
قَدْ سَرَّحَ الصبيانَ كُلَّهم ... وبقيتُ مَحْصُوراً[٣] بلا جُرْمِ

٢٠ ـ كان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم بعثه فى حاجة، فأبطأ وعاد ولم يقضها، فنظر إليه، ثم قال:

عَقْلُه عَقْلُ طائرٍ ... وهو فى خِلْقَةِ الجَمَل

فأجابه:

شَبَهٌ مِنْكَ نَالنى ... ليس لى عَنْهُ مُنْتَقَل

٢١ ـ وفد سعيد بن عبد الرحمن بن ثابت وهو صبى؛ وضىء الوجه، على هشام، فسلمه إلى معلم الوليد بن يزيد، وهو عبد الصمد بن عبد الأعلى، فطمع فيه، فدخل على هشام وهو يقول:

إنَّه والله لولا أَنْتَ لم ... يَنْجُ منى سَالماً عبد الصمد

قال: ولم؟، قال:

إنه قد رَامَ[٤] منى خطة ... لم يرمها قبله منى أحد

قال: وما ذاك؟، قال:

رامَ جهلاً بى؛ وجهلاً بأبى ... يُولِجُ[٥] العصفور فى خيس[٦] الأسد

---

(١) وجد: غضب على.
(٢) فَظَاظَة: غلاظة وقسوة.
(٣) محصوراً: محبوساً.
(٤) رَامَ: طَلَبَ.
(٥) يولِجُ: يُدخِلُ.
(٦) خيس: (الخِيس) بالكسر: موضع الأسد.

فصرفه هشام عن التعليم، فقال فيه الوليد:

لقد قَرَفُوا[1] أبا وهب بأمر ... كبير بل يزيد على الكبير

وأشهد أنهم كذبوا عليه ... شهادة عالم بهم خبير

٢٢ ـ كان لعبد الله بن سالم ابنان، فأدبهما بفنون الآداب، يسمى أحدهما ربيعة، والآخر سفيان، وكانا مع حداثة سنهما،آدب أهل زمانهما، فتفاخرا عنده ذات يوم فى غرائب الكلام، فأحب أبوهما أن يظهر ذلك لقومه، فقال لهما: إن شئتما بلوتكما فى كلمات أسألكما عنها؟ قالا: فإنا قد شئنا، فجلس لهما فى ملأ من قومه، ثم دعا ربيعة وأخرج سفيان، فقال: أخبرنى يا ربيعة عما أسألك عنه؟ قال: سلنى عما بدا لك، قال: أخبرنى عن المجد، قال:ابتناء المكارم، وحمل المغارم[2]، قال: فأخبرنى عن الشرف؟قال: كف الأذى، وبذل الندى[3]، قال: فأخبرنى عن الدّعة[4]؟ قال: إيتاء اليسير[5]، والمن[6] بالحقير، قال: فما المروءة[7]؟ قال: شرف النفس، مع تعاهد الصنيعة[8]، قال: فما الكلفة[9]؟ قال:التماس ما لا يعنيك وتعجيل ما لا يؤتيك. قال:فما الحلم[10]؟قال: كظم الغيظ، وملك الغضب، قال: فما الجهل؟قال: سرعة الوثوب على الجواب، قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب ما استرعى، وفهمه ما أوعى، قال: فما

---

(١) قَرَفوا: وَصَمُوا.

(٢) المغارم: الديون.

(٣) الندى: الجود، يقال: فلان ندى الكف: أى سخى.

(٤) الدعة:الخفض.

(٥) إيتاء اليسير: إعطاء القليل.

(٦) المن: الإنعام.

(٧) المروءة:الإنسانية أو العفة والحرفة.

(٨) الصنيعة: المعروف.

(٩) الكلفة: ما يتكلفه الإنسان من نائبة أو حق.

(١٠) الحِلْم بالكسر:الأناة.

الحزم[1]؟قال: انتظار الفرصة، وتعجل ما أمكن، قال: فما العجز[2]؟قال: التعجل قبل الاستمكان، والتأنى بعد الفرصة، قال: فما الشجاعة؟ قال: صدق النفس، ومتاركة الدخاس[3]، قال: فما الجبن؟ قال: طيرة الروع[4] وضيق البوع[5]، وسرعة الفشل، قال: فما السماحة؟ قال: حب السائل،وبذل النائل[6]، قال: فما الشح[7]؟ قال: من يرى القليل إسرافاً، والكثير إتلافاً، قال: فما الظرف؟ قال: حسن المحاورة، وسرعة المجاوبة، قال: فما الصلف؟ قال: عظم النفس، مع قلة المقدرة، قال: صدقت لا عدمتك[8]، ثم دعا سفيان فقال: أخبرنى ما الفهم؟قال: لسان سؤول، وقلب عقول، قال: فما الغنى؟ قال: قلة التمنى، والرضا بما يكفى، قال:فما الكيس[9]؟قال: تدبير المعيشة مع طلب الآخرة، قال: فما السؤدد[10]؟ قال: اصطناع العشيرة، وحمل المؤونة، قال: فما السناء[11]؟ قال: حسن الأدب، ورعاية الحسب، قال: فما اللؤم[12]؟ قال: إحراز النفس، وإسلام العرس[13]، قال:فما الخرق[14]؟ قال: مماراة[15] الأمراء،ومعاداة الوزراء، قال: فما الدناءة[16]؟ قال: الجلوس على الخسف[17]،

(١) الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة.
(٢) العجز: الضعف.
(٣) الدَّخاس: الكثرة.
(٤) الرّوع: الفزع.
(٥) البوع: قدر مد اليدين وما بينهما من البدن.
(٦) النائل: العطاء.
(٧) الشُّحّ: البخل مع الحرص.
(٨) لا عدمتك: لافقدتك.
(٩) الكيس: ضد الحمق.
(١٠) السؤدد: السيادة.
(١١) السَّناء: الرفعة.
(١٢) اللُّؤم:ضد الكرم.
(١٣) العُرْس:طعام الوليمة.
(١٤) الخُرْق: الحمق، والأنثى خرقاء.
(١٥) مماراة: مسايرة، ونفاق.
(١٦) الدناءة: الخسة.
(١٧) الخسف: الأرض.

والرضا بالهون[1]، قال: فما المجد؟قال: عز السلف، وقدم الشرف، قال: فما الأروم[2]؟ قال: الأصل الصميم، والبيت القديم، قال: فما الفقر؟ قال: شره[3]النفس، وشدة القنوط[4]، فقال أبوهما:أحسنتما جميعاً، وقلتما الصواب.

٢٣ـ لما ردت حليمة السعدية النبى ﷺإلى مكة، نظر إليه عبد المطلب وقد نما نمو الهلال، وهو يتكلم بفصاحة، فقال: جمال قريش، وفصاحة سعد، وحلاوة يثرب.

٢٤ـ سأل حكيم غلاماً؛ معه سراج: من أين تجىء النار بعدما تنطفئ فقال:إن أخبرتنى إلى أين تذهب؟ أخبرتك من أين تجىء.

٢٥ ـ قحطت[5]البادية فى أيام هشام،فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يتكلموا، وفيهم درواس بن حبيب، وهو إذ ذاك صبى، له ذؤابة[6]،وعليه شملتان[7]،فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد يدخل علىَّ،إلادخل على حتى الصبيان، فوثب درواس؛حتى وقف بين يديه؛ مطراً أى مدلاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لا يعرف ما فى طيه إلا بنشره، فإن أذنت لى أن أنشره نشرته، قال: انشر لا أبا لك ـ وقد أعجبه كلامه مع حداثة سنه ـ فقال:إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت[8] العظم، وفى أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله

---

(١) الهون: الهوان.
(٢) الأروم: الأصيل.
(٣) شره:(الشره):غلبة الحرص.
(٤) القنوط:اليأس.
(٥) قحطت:(القحط): الجدب.
(٦) ذُؤابة: الشعر المضفور من شعر الرأس.
(٧) شملتان:(الشملة): كساء يُشتمل به.
(٨) أنقت: نظفت.

ففرقوها على عباده،وإن كانت لهم؛ فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم؛ فإن الله يجزى المتصدقين، فقال هشام: ما ترك لنا الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادى بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، فقال: اردها يا أمير المؤمنين، إلى جائزة العرب فإنى أخاف أن تعجز عن بلوغ كفايتهم، فقال: أما لك حاجة؟ فقال: ما لى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين،فخرج، وهو من أنبل القوم.

٢٦ ـ **قال رجل**: مررت بغلمة من الأعراب يتماقلون[١] فى غدير، فقلت:أيكم يصف لى الغيث[٢]، وأعطيه درهما؟ فخرجوا إلى، وقالوا: كلنا نصف ـ وهم ثلاثة ـ فقلت صفوا فأيكم ارتضيت صفته أعطيته الدرهم، فقال أحدهم:عن[٣] لنا عارض قصراً[٤]، تسوقه الصبا[٥] وتحدوه الجنوب[٦]، يحبو حبو المعتنك[٧]، حتى إذا ازلأمت[٨] صدوره، وانثجلت[٩] خصوره، ورجع هديره[١٠]، وأصعق زئيره[١١]، واستقل نشاصه[١٢]، وتلاءم خصاصه[١٣]، وارتعج ارتعاصه[١٤]، وأوفدت سقابه[١٥]،وامتدت أطنابه[١٦]، تدارك ودقه[١٧]، وتألق برقه، وحفزت

---

(١) يتماقلون:يغوصون.
(٢) الغيث:المطر.
(٣) عن لنا:عرض لنا.
(٤) عارض قصرا:سحاب منخفض.
(٥) الصبا:الريح.
(٦) الجنوب:الريح المقابلة للشمال.
(٧) المعتنك: المجهد، والتعنيك:المشقة.
(٨) ازلأمت:انتصبت ـ انبسطت ـ ارتفعت.
(٩) انثجلت: عظمت.
(١٠) هديره:صوته الشديد.
(١١) أصعق زئيره: اشتد صوته كأنه صوت الأسد الخارج من صدره.
(١٢) نشاصه: ارتفع بعضه فوق بعض.
(١٣) تلاءم خصاصه:اجتمعت خصائصه.
(١٤) ارتعج ارتعاصه: ارتعد وتلوى وانتفض.
(١٥) أوفدت سقابه: أرسلت بشارة نزول المطر،(السقب) ساعة يولد.
(١٦) أطنابه: أطرافه.
(١٧) تدارك ودقه:تلاحق مطره.

تواليه[1]،وانسفحت عزاليه[2]، فغادر الثرى عمداً[3]، والعزاز ثئداً[4]،والحث عقداً[5]،والضحاضح متواصية[6]، والشعاب متداعية[7].

وقال الآخر: تراءت المخايل من الأقطار، تحن حنين العشار، وتترامى بشهب النار، قواعدها متلاحكة[8]،وبواسقها[9]متضاحكة،وأرجاؤهامتقاذفة،وأعجازها مترادفة، وأرجاؤها متراصفة، فواصلت الغرب بالشرق، والوبل[10] بالودق، سحاً[11] دراكاً، متتابعاً لكاكاً[12]، فضحضحت الجفاجف[13]،وأنهرت الصفاصف[14]، وحوضت الأصالف[15]، ثم أقلعت محسبة محمودة الآثار، موموقة الحبار[16].

وقال الثالث: والله ما خلته[17] بلغ خمساً، فقال: هلم الدرهم أصف لك،فقلت: لا؛ أو تقول كما قالا، فقال: والله لأبزنّهما[18] وصفاً، ولأفوقنّهما رَصفاً[19]، قلت: هات لله أبوك، فقال: الحاضر بين الياس والإيلاس[20]، قد غمرهم الإشفاق رهبة

(١) حفزت تواليه: تدافع متتابعة.
(٢) انسفحت عزاليه: انصبت بالمطر الكثير الجود.
(٣) الثرى: التراب الندى.
(٤) العزاز ثئداً: المكان الصلب السريع السيل.
(٥) الحث عقداً: الرمل الغليظ الخشن.
(٦) الضحاضح متواصية: غدران الماء متصلة بعضها ببعض.
(٧) الشعاب متداعية:الأغصان متهدمة.
(٨) متلاحكة: شديدة.
(٩) بواسقها:(الباسق): المرتفع فى علوه. وهنا صفة للسحاب.
(١٠) الوبل بالودق: المطر الشديد الضخم بالمطر الخفيف.
(١١) سحاً دراكاً: أصدر متداركاً.
(١٢) لكاكاً: مزدحما.
(١٣) ضحضحت الجفاجف: ترقرق الماء فى الأرض المستديرة.
(١٤) الصفاصف: المستوى من الأرض، قال الفراء: الصفصف: الذى لا نبات فيه.
(١٥) حوضت الأصالف: اجتمعت السحب الكثيرة الرعد القليل الماء.
(١٦) موموقة الحبار: نادرة الأثر.
(١٧) خلْتَه: حسبْتُه، وظننته.
(١٨) لأبزنهما: لأسبقنهما ولأغلبنهما.
(١٩) رصفاً:(الرَّصف): ضمُّ الشيء بعضه إلى بعض ونظمُه.
(٢٠) الإيلاس: الرَّيبة.

الإمْلاق[1]، وقد حقبت الأنواء[2]، ورفرف البلاء، واستولى القنوط[3] على القلوب، وكثر الاستغفار من الذنوب، ارتاح ربك لعباده؛ فأنشأ سحاباً مسجهراً[4] كنهورا[5] معنونكاً[6] محلولكاً[7]، ثم اسْتَقَل[8] واحزألّ[9]، فصار كالسماء دون السماء، كالأرض المدحوة في لوح الهواء، فأحسب[10] السهول، وأتاق المطمئنة الهجول[11]، وأحيا الرجاء وأمات الضّراء[12]، وذلك من قضاء رب العالمين، قال: فملأ -والله- اليفع[13] الثلاثة صدري، فأعطيت كل واحد منهم درهماً، وكتبت كلامهم.

٢٧ـ قال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني، إذا أقللت من الكلام أكثرتَ من الصواب، وإذا أكثرتَ من الكلام أقللت من الصواب، قال: يا أَبَتِ فإن أنا أكثرتُ وأكثرتُ -يعني كلاماً وصواباً- قال: يا بني ما رأيتُ موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك.

٢٨ـ قال الرشيد يوماً لأبي عيسى ولده وهو صبي، وكان من أجمل أهل زمانه: ليتَ جَمَالَكَ لعبد الله -يعني المأمون- قال: على أن حظه منك لي، فعجب من جوابه؛ وضمه إليه.

---

(١) الإملاق: الافتقارُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١].
(٢) حقبت الأنواء: احتبست الأمطار.
(٣) القُنوط: اليأس.
(٤) مسجهراً: يترقرق فيها الماء.
(٥) كنهوراً: كأنهار.
(٦) معنونكاً: مظلماً.
(٧) محلولكاً: شديد الظلمة.
(٨) استقل: مضى وارتحل.
(٩) احزألّ: ارتفع نحو بطن السماء.
(١٠) أحسب: روى وسنى.
(١١) أتاق المطمئنة الهجول: اشتاقت الأرض.
(١٢) الضراء: الشدة.
(١٣) اليفع: أيْفَعَ الغلام: أي: ارتفع عن الأرض فهو يافع.

٢٩ـ قَرَعَ قَومٌ على الجاحظ الباب، فخرج صبى له؛ فسألوه ما يصنع؟! فقال: هو ذا يكذب على الله، قيل: كيف؟ قال: نظر فى المرآة، فقال: الحمد لله الذى خلقنى؛ فأحسن صورتى.

الأساس العلمى الحادى عشر: عُرَامَةُ الصبى فى صِغره، زيادةٌ فى عقله فى كبره:

هذا نص الحديث الذى رواه أنسﷺورواه الحكيم الترمذى عن عمرو بن معد يكرب وأبى موسى فى أماليه عن أنسﷺورواه عن الديلمى، ورمز السيوطى إلى صحته فى الجامع الصغير٤/ ٣١٠ ثم شرحه المناوى على النحو التالى:«عُرامَةُ الصبى فى صغره» : أى حدته وشراسته، إذ العُرَام: كغُراب، الحِدّةُ والشَّرَسُ.

(زيادة فى عقله فى كبره): قال الحكيم: العرم: المُنْكِرُ، وإنما صار مُنْكِراً لصغره، فذاك من ذكاوة فؤاده، وحرارة رأسه، والناس يتفاضلون فى أصل البنية: فى الفطنة، والكياسة، والحظ من العقل.

فالصبى إذا بدا منه زيادة بصر فى الأمور وذكاء، قيل: عارم، والعرم بلغة اليمن: السدّ،فالصبى يسد باب البلاهة بزيادة ذلك النور، فيهتدى للطائف الأمور.

وفى مجمع بحار الأنوار[1]: عرما بالضم والفتح الكسر، والعرام: الشدة والقوة والشراسة انتهى.

ومن ذلك الشرح يظهر أن حركة الطفل الفكرية إذا كانت شديدة، ازدادت قوة وعناداً، وظهرت أمام الآخرين بمظهر الشراسة التى يذمها البعض، فالصبى عندما تزداد حدة ذكائه؛ يرفض كثيراً من الأمور وتمرد على الواقع،ويعاند الكبير فيما يراه صحيحاً، فهذا له دلالة كبيرة على أن مستقبل ذلك الطفل العقلى سيكون فى مصاف الأذكياء.

وليس أدل على ذلك، من الحوارات التى مرت معنا، فى أجوبة أذكياء الأطفال، ومن ظهور عجز الكبار أحياناً فى الرد على الصغار، ونرى كثيراً من الآباء عندما

(١) مجمع الأنوار: تأليف محمد طاهر الكجراتى الهندى، ط. دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، سنة ٥٧٨ هـ.

يعجز عن إجابة طفله، ويصر الطفل على المعرفة، أن يتهمه بقلة الأدب، أو قلة الحياء، أو قلة الفهم. وذلك موقف سلبى من أولئك الآباء، فعلى أقل تقدير، إذا لم يعرفوا الإجابة، أن يدلوهم على العلماء ليسألوهم، بدلاً من إخماد حدة ذكائهم، وفرط قوة تفكيرهم.

إن توجيه ذكاء الطفل توجيهاً جيداً، ستجعل منه قوة عقلية تبحث فى دقائق الأمور، وتبتعد عن سفاسفها.

لقد نال أطفالاً الضرب المبرح من آبائهم نتيجة عرامتهم الشديدة، وقوة ذكائهم.فكانوا ينالون بدلاً من الجواب السديد، أو الرأى الحكيم من والديهم أو أساتذتهم فى المدرسة،ولم يكن الكبار على قدر المسؤولية فى تفهم حقائق عقل الطفل المتأجج المتحرك.

لهذا يأتى هذا الحديث:«عُرامَةُ الصبى فى صغره، زيادةٌ فى عقله فى كبره» ليكون قاعدة للآباء والمربين والأساتذة الكرام.

لقد قام الإمام الشافعى: « ما ناقشنى جاهل إلا وغلبني، وما ناقشت عالماً إلا غلبته» والطفل جاهل بحقائق الأشياء وعواقب الأمور، وطريقة الحوار، ومتى يطرح السؤال، إذ سرعان ما تخطر بباله، يقذفها مدوية ما حوله، وقد تأتى أفكاره انتقادية لاذعة، فتحرج الأب أو المدرس، وقد تأتى مضحكة مدوية، فالأفضل تلقيها بصدر رحب، وعقل متفتح من الكبير، ونفس رضية بقبول النكتة، ومهما يكن من أمر، فإن الطفل يحتاج إلى إرشاد وتوجيه لخواطره وأفكاره، وليس بحاجة إلى كبت وإخراس وتسكيت. والله أعلم وهو الموفق للصواب والرشاد.

الأساس العلمى الثانى عشر: تدريب الطفل على صياغة السؤال ونطقه به بشجاعة وأدب:

يحتاج الطفل فى البناء العلمى والفكرى والعقلى دائماً إلى التعبير عما فى نفسه من أسئلة، وكثيراً ما يتردد فى السؤال،هل هو مصيب أم لا؟ وهل سيضحك الطلاب منه أم لا؟ وهل سينال العقاب أم الثواب على سؤاله، لذلك لابد من

تدريب الطفل على صياغة السؤال وأن يعبر عن ما فى نفسه من أسئلة تراوده، حتى قيل لابن عباس ﷺ : بم نِلْتَ العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

وروى البخارى قال:حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان قال:قال يحيى بنُ سعيد: سمعت بشيراً قال: سمعتُ سهل بن أبى حثمة أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع التمر بالتمر، ورخَّصَ فى العَرِيَّةِ يَبيعُها بِخَرصْها. يأكلونها، وقال سفيان مَرَّة أخرى: إلا أنه رَخَّص فى العريّة يبيعها أهلُها بِخَرْصها يأكلونَها رُطباً، قال: هو سواءٌ، قال سفيانُ: فقلت ليحيى-وأنا غلام : إن أهل مكةَ يقولون: إن النبيﷺ رخَّصَ فى بيع العَرَايا، فقال: وما يُدْرى أهلَ مكة؟! قلتُ: إنهم يَرْوونه عن جابر، فسكت، قال سفيانُ: إنما أردتُ أن جابراً من أهل المدينة.

قيل لسفيانَ: وليس فيه نهى عن بيع الثَّمَر حتى يبدو صلاحُهُ؟ قال: لا. ورواه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود.